
أُحجيةُ العُزلة
أثير عبدالله النشمي
رواية
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

أحجية العزلة

أثير عبدالله النشمي

أُحجية العُزلة

رواية

دار الفارابي

الكتاب : **أحجية العزلة**

المؤلف : **أثير عبد الله النشمي**

لوحة الغلاف: الفنان فهد خليف

تصميم الغلاف :ريهام العنزي

الناشر : دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت : 301461 (01) – فاكس : 307775 (01)

ص.ب : 3181/11 – الرمز البريدي : 11072130

www.dar-alfarabi.com

email: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط 2020

ISBN : 978-614-485-073-2

الإهداء

إلى أختي أروى، عُكازي وسندي..

وِحدة!

أقاوم كل صباح وحدة اليقظة!

أفتح عيني بكسل الالتزام، وأتأمل سقف الغرفة الصامت، لأنفض واجب الحياة من بين أجفاني.

لا أعرف كم سأقدر على تحمّل ضوضاء الحياة، وعتمة العالم.

أنهض من فراشي، وأجر قدمي المخذولتين قسراً إلى الحياة.

أغسل عبء العيش من على وجهي، أفرش أسناني وأتخلّص من كل ما بداخلي من أفكارٍ تجاه العالم والناس.

أنظر إلى ملامحي التي لم تعد تُشبهني في المرآة.

«هذا الوقت سيمضي، وستموت يوماً هذه الوحدة».

* * * *

لطالما كان من الصعبِ عليّ أن أبتدئ في كتابة رواية، لطالما كانت المعضلة في الصفحة الأولى!، تتلاشى الصعوبة وتنتهي، تتشكل معالم روايتي في ذهني، ويتضح طريقها وتتخلق شخصياتها ما إن أنتهي من كتابة الصفحة الأولى!

أستمع إلى المقطوعة الموسيقية، fill sur le لـ Yann tiersen، محاولاً استحضار أفكاري، أُفكر، ما الصورة التي كانت تتراءى ليان وهو يؤلف مقطوعة ناعمة كغمام؟!.. يبدو لي حينما أستمع إليها أن امرأة بيضاء تشبه سحابة أو حلوى قطن، تتراقص على أنغام المقطوعة كهتان، فتذوب تحتها وتتناثر كديم.

يُخيل إلي بأنني لم أعد أُحب الكتابة، فقدت مُتعتي بِمُمارستها ما إن فزت بالجائزة،الجائزة التي حفرت اسمي بين صفحات التاريخ، ككاتب وإلى الأبد.

لا أعلم إن كان هذا ما كُنت أكتب لأجله؟ الخلود؟.. تلك الفكرة، وذلك الوهم الذي نقاتل في الحياة لأجله ونتخلى عن أي شيء مُهم في حيواتنا للوصول إليه، لنخلد!

نعيش الوحدة والألم والشوق أحياءً لنُخلد ونحن أمواتاً فـ«المؤلف ميت والعمل الأدبي خالد» مثلما يرى الفيلسوف والناقد الأدبي رولان بارت، لذا نقايض حاضراً مادياً بما بعد المستقبل اللامادي، ونعيش معلقين بين المادة واللامادة!

ورغم يقيني بذلك، أقول دائماً للمتدربين الذين يحضرون ورش العمل التي أُدرب عليها في مجال الكتابة الإبداعية، بأن الخلود هو غالباً ما يسعى لأجله الكاتب الحقيقي، الكاتب الذي يتمركز الكون حول ذاته، ذاته التواقة إلى الخلود أكثر من أي شيء وكُل شيء، وبأن في داخلِ كل واحدِ منا جلجامشاً طامعاً في الخلودِ أكثر من أي شيءٍ آخر.

أنا أيضاً لا أختلفُ عن معظم الكتاب، تبدو أناي ضخمة كأناهم، طامعة بالخلود لتموت مطمئنة، مُبتسمة للتاريخ خلفها وقد أودعت اسمها بين صفحاته.

أناني أنا ككُل الكتاب، ذاتوي، يتمحور كُل شيء حولي.

لا أعرف إن كُنت هكذا لأنني كاتب، أم لأنني مصاب بالإسبرجر أو ما يسمى بطيف التوحد حالياً، أم لأنني مُجرد إنسان، أشابه الكثير في إنسانيتهم المُختلفة والمتشابهة، أشابه الكثير والكثير من البشر..

أشعر أحياناً بأن أمي من شكلتني على هذه الصورة الذاتوية، أمي التي لم تجعلني أختار نفسي أولاً وقبل أي شيء، بل من جعلت كل شيء يأتي بعدي وكأنها الفطرة، وكأنها الصورة التي يجب أن تكون عليها الحياة وأن يكون عليه العالم.

«ثنيان» أولاً ومن ثم تأتي من بعده كُل الأشياء..

لم يكُن خوف أمي عليّ عادياً، عشتُ طفولة من خوفٍ وحذر، دُللت بحُبٍ مُتطرف، وقسوة في أحيانٍ كُثر، كانت أمي تُحبني بتطرف وكانت تخشى عليّ من كُل شيء وأي شيء، لذا كانت تعاملني بصرامة في أوقات كثيرة، وبقسوةٍ في أحيانٍ أُخرى وبُحبٍ وقبول في كُل الأوقات.

لم أكن طفلاً غبياً على الإطلاق، لكنني لم أكن بحاجة لأن أكون عبقرياً لأعرف كم كانت تخاف عليّ أمي، وكم كانت تُريد أن تحميني، لذا لم أستمتع بأشياء كثيرة في الطفولة كإخوتي وكباقي الأطفال، حال خوفها بيني وبين الكثير من بديهيات المُتع، لم أفترش الوحل، ولم ألعب تحت المطر، لم آكل الثلج ولا عجين كعك الفانيليا بالبيض النيء، لم أخرج بدراجتي في الشارع ولم أزر حديقة الحيوانات خوفاً من الجراثيم.

عشتُ طفولة نظيفة، ومُعقمة ومليئة بالنواهي والقوانين واللاءات، تصدح طفولتي بلاءات كُثر، لا، لا، لا، لا.. لا، لا..

لم أفهم ما الذي كانت تعنيه إصابتي بالإسبرجر، لكنني كُنت أعرف بلا شك بأنني مُختلف بطريقة ما عن غيري من الأطفال، لكنني شعرت أيضاً بأن كل طفل يشعر بهذا بطريقة ما، هذا ما كان يطمئنني أحياناً؛ اعتقادي بأن كُل طفل يشعر باختلافه مثلما تعلمني القصص الإنكليزية التي كانت تقرأها لي أمي دائماً.

حينما بدأ وعيي يتشكل، والذي أكاد أجزم بأنه كان مُبكراً، بدأت تشدني كلمتا إسبرجر و«إسبي» كثيراً، الكلمتان اللتان كانت أمي دائماً ما تذكرهما في تلك الزيارات المُتكررة لبعض الأماكن الغريبة، الأماكن التي لطالما كُنت أُفكر لماذا تأخذني أمي إليها، لماذا ألعب في مكان أُدرك تماماً ورغم سنين عمري القصيرة أنها ليست أماكن للعب، لماذا كان يسألني أولئك عن أمور كثيرة وكأنهم أطباء وإن كانوا بلا معاطف بيضاء، لما أُجبر في تلك الأماكن على اللعب، على الرسم؟ على أن أحكي بما أُفكر، كُنت أُدرك تماماً بأن اللعب اختيار، والرسم اختيار.. والأفكار اختيار، فلمَ كُنت أُجبر على القيام بكل تلك الأشياء وكأنها امتحانات..؟!.. قطعاً كُنت أُدرك بأن تلك الأماكن لم تُكن مراكز ليلعب بها الأذكياء مثلما كانت تحاول أن تقنعني أمي، لكنني لم أُكن أفهم طبيعتها تماماً، لذا كُنت أدس أسئلتي لأمي بحذر، «ماما أنا ذكي؟!».. لتطمئني إجابتها المعتادة بالملامح ذاتها، تعقد حاجبيها باستنكار وتصر على حروفها مؤكدة: أنت أذكى من كُل من في هذا العالم!

تلك الإجابة القاطعة، صوت حروفها اليقينية، كانت تشعرني فعلاً بأنني أذكى من كُل من في العالم، وإن حاول العالم أن يشعرني بعكس ذلك.

قطعاً استطاعت أمي إقناعي بأنني أذكى من كُل من في العالم، واليوم أعرف، ورغم سنين الشك القليلة التي عشتها في مراهقتي، بأن اليقين الذي منحتني إياه أمي، لم يكُن كأي يقين، استطاعت أن تجعلني أشعر بأنني عبقري، واستطعت أنا أن أفهم بأنني عبقري حقاً، ليس لأن أمي تؤمن بذلك فقط، بل لأن تكوين دماغي وجيناتي مسؤول عن ذلك فعلاً.

أعرف اليوم بأن الإسبرجر قد منحني ذكاءً فريداً، لكنه كان عبارة عن معطيات بلا برمجة، كان بحاجة لأن يُحلل ويُصنف ويُبرمج ويُفسر، وأمي وحدها من ساعدتني على أن أفعل ذلك نسبياً وجزئياً.

حاولت أمي أن تعلمني كيف أحب الإسبرجر، رُغم أنني كرهته في أوقاتٍ كثيرة وما زلت أكرهه أحياناً؛ فبقدر ما منحني الإسبرجر من مزايا عقلية وذهنية، سلب مني الكثير من المزايا الاجتماعية والعاطفية والذهنية أيضاً.

بارعُ أنا في عملي بفعل الإسبرجر، وفاشل في حياتي الاجتماعية والعاطفية بفعل الإسبرجر أيضاً، لكنني أعرف بأنني لو لم أكُن مصاباً به لربما كُنت فاعلاً اجتماعياً وسعيداً عاطفياً، لكنني لربما كنت سأفشل في عملي أو لا أُجيده على هذا المستوى من التفرد.

الإسبرجر أعطاني بقدرِ ما أخذ مني، هذا ما كانت تُريد أن تعلمني إياه أمي، مثلما أرادت أن تعلمني بأن الاختلاف ميزة، وإن أصر الكون كله على أنه عيب.

دائماً ما كانت تُريد أن تشعرني بأنني مميز باختلافي؛ الحقيقة أنني لا أعرف كيف هي مشاعر الآخرين من البشر، لا أعرف كيف تختلف مشاعرهم عني، ما أعلمه جيداً هو أننا نختلف وبأنني غير قادر على إيصال مشاعري كما هي، دائماً ما يكون هُناك خلل ونقص في إيصال المعاني، لم تصل مشاعري في يوم من الأيام إلى الآخرين كما أردتها أن تصل، كان المعنى يسقط دائماً في الفجوة المُمتدة بيننا، ربما طريقتي في التعبير هي السبب، ربما هو الإسبرجر، لا أعرف!

أتصور بأن كل المخلوقات تشعر وتُفكر لكن ليس كما أفعل، لا قدرة لي على تفسير اختلاف الآخرين عني أو تفسير اختلافي عنهم، جئتُ هكذا مثلما جاؤوا هم هكذا، من المُختلف منا؟! لا أعلم..

وقفت طويلاً أمام هذا الاختلاف، كل «أسبي» مر ويمر بما مررت وأمر به – على ما أظن! -، التفكير في تلك المساحة الشاسعة، بيننا وبين من سوانا، خصوصاً إن عاش أحدنا في مُجتمع يُجيد التمايل والتمايز كما لا يفعل آخر، سيُفكر كثيراً في تلك الفروقات والاختلافات.

وبقدر ما حاولت أمي أن تشعرني بتفوقي، قابلني المجتمع بالتقليل والتمييز والنبذ والإهانة، مُيزت كثيراً وكان تمييزي يزداد عن الآخرين كُلما كبرت أكثر. تعرضت في المدرسة للتنمر لأنني مُختلف، تعرضتُ للتحرش لأنني مُختلف، تعرضت وما زلت للتهميش والتقليل لأنني مُختلف، رُغم كل ما استطعت تحقيقه من نجاحات إلا أنني قوبلت دوماً بالإقصاء بسبب اختلافي.

مختلف لكن ليس أقل «different، not less» هذا ما أرادت العالمة تمبل قراندين أن تبرهن صحته، هذا ما تشبثت أمي به وما أرادتني أن أؤمن به، أنني مخُتلف لكنني ليس أقل من غيري بل غالباً أفضل!

أنا مدين بكل ما تعلمته لأمي، لم أستطع يوماً أن أكتب لها أو عنها، ربما لأنني غير قادر على التعبير عما أشعر به تماماً، لكنني أُدين فعلاً بكل شيء لأمي.

غمرتني أمي بكُلِ ما يمكن أن يُغمر به طفل، منحتني كل ما استطاعت أن تمنحني إياه، اختبرتُ صبرها كثيراً، ورغم المواقف الكثيرة التي انهارت بسببي فيها، واللحظات الكثيرة أيضاً والتي فقدت فيها السيطرة على أعصابها وعنفتني بطريقة ما، إلا أنني أعرف أنها لطالما كانت صبورة عليَّ ومن أجلي.

لم تَكُن أمي مثالية في معظم الأحيان، لكنها كانت مثالية دائماً في اجتهادها بأمومتها!

قست عليَّ أمي أحياناً، قست بقدرِ ما أحبتني.. لم يكُن الانفكاك عن أمي سهلاً قطّ، كان ضرباً من ضروب المستحيل على كلينا، شعرتُ حينما بدأت أمي تدفعني وحدي إلى الحياة، بأنها تقذف بي

بقوة وقسوة، شعرتُ وكأنني عصفور صغير لم يشتدّ جناحاه بعد، عصفور تدفعه أمه من أعلى ليسقط محاولة تعليمه السعي والطيران.

لطالما شعرتُ بأنني وأمي وحيدان في هذه الحياة، رُغم أنني أكبر شقيقيّ الاثنين، ورُغم أنني لطالما لمست حبَّ أبي الكبير لي، إلا أن الحكاية دائماً كانت بيني وبين أمي، أمي وحدها من كانت قادرة على أن تقتحم تلك المساحة الصغيرة، الوحيدة القادرة على أن تدلف إلى العزلة وأن تخرج منها.

مازلتُ أذكر حكايا ما قبل النوم وكأنها قصة مصورة، أذكر صوت أمي، نظرتها وجملتها التي لطالما دثرتني بها قبل أن أنام، «أنا آسفة يا ثنيان لو كُنت أجبرتك اليوم على شيء لم ترغب بالقيام به، حينما تكبر يا ثنيان، ستفهم وستعرف أنني فعلتُ هذا لأنني أحبك».

كانت تدس جملتها تلك في كل ليلة، وفي كُل ليلة أفكر في كل ما سأفهمه وسأعرفه يوماً عن أمي وعني، ما سأفهمه وسأعرفه عن حكايتنا الغريبة، وأُحجيتنا المُعقدة، أُحجية العُزلة.

* * * *

a helping hand and re down and troubled and you need‹When you
your eyes and think of me and soon I nothing is going right Close ‹nothing
be there to brighten up even your darkest nights. will

ما زلت أذكر كم كان صوت أمي عذباً وهي تُدندن بأغنية جيمس تايلور تلك، تلك الصورة القديمة تأتيني كفيلم قديم ملون كما كانت أمي تماماً، امرأة ملونة في زمنٍ رمادي كتسعينات بلادنا.

أُفكر الآن وفي كُل مرة أسمع فيها الأغنية القديمة تلك، أكانت أمي تحبها من أجلي؟ أكانت تعنيني بها؟

ماذا لو لم تكُن أمي أستاذة جامعية، لو لم تتلقَ تعليمها الجامعي ودراساتها العليا مع أبي في الولايات المتحدة، لو لم تمضِ أكثر من عقد من الزمن في بلدٍ مُتقدم علمياً، أكانت لتعرف ولأعرف

لاحقاً لِمَ أنا مُختلف؟، أكنت سأعيش حياتي بشكل طبيعي أكثر مما عشته معها، أم كنت سأذوق المر مرين بعدم معرفتي ومعرفتها ما أُعانيه؟!

أُفكر فيما لو كُنت أُعاني اضطرابات حسية سمعية مثلما يعاني معظم الإسبيز، بماذا كانت ستتزود أمي في رحلتها معي؟!، بمن كان سيرافقني في عُزلتي معها؟

أمي السابقة لزمنها والمختلفة عمن هم في عُمرها ومجتمعها، أمي التي لم تُحرم الموسيقى يوماً، ولم تُمزق لها صورة ذات يوم، والتي عاشت الحب والعلم والابتعاث وتربية الأبناء المُختلفة عما كان سائداً في محيطها ومجتمعها.

أحبت أمي الموسيقى كثيراً، وأحببتُ الموسيقى بسببها أيضاً، وجدتُ في الموسيقى رفيقاً في عُزلتي، واستطاعت الموسيقى أن تُعيدني إلى الكتابة دائماً في كُل مرة أُضيع فيها دروب الكلمات.

الموسيقى لا تكمل الأدب فقط، والأدب ليس الوجه الآخر للموسيقى فحسب، بل هما لساني ويداي اللتان تحاولان تخفيف ألم بعض ما في الحياة، تحاولان أن تخففا من ألمي قبل كُل شيء وأي أحد.

يستوقفني دائماً سؤال «لِمَ تكتب؟»، في كُل لقاء صحفي يصلني مكتوب، نتناقش في الأمر كثيراً في ورش العمل التي أُقدمها دائماً أيضاً، أجد الكثير من كتب تعليم الكتابة الإبداعية تتضمن السؤال ذاته، وكأن أسباب الكتابة لُغز الحياة التي لابد من أن يكُتشف.

أجيب دائماً بأنني أكتب لأنني لا أجيد التحدث، لكنني لا أظن بأن أحداً قد اقتنع بالأمر فعلياً؛ فالبشر يفهمون الكلمات بشكل مجازي، أحياناً، على عكس الإسبيز الذين يواجهون صعوبة عظيمة في فهم ما تخفيه الكلمات وما تعنيه لغة الجسد، لذا لا أعتقد بأن أحداً قد صدق أو فهم فعلاً بأنني لا أجيد التحدث، لهذا أكتب!

لهذا أكتب ولهذا أُحب الموسيقى أيضاً، لأنها تُعبر عما أُريد قوله من دون كلمات.. أحببت الموسيقى بشغفٍ، عكس كثيرين ممن هم مصابون بالإسبرجر، كُنت محظوظاً جداً أن مشاكلي الحسية لم تُكن سمعية قطّ، الحق أنني محظوظ كثيراً لأنني لا أعاني مشاكل حسية من أي نوع كانت، تخيفني الأماكن المزدحمة، يجعلني ملمس الصوف والصخر والعشب أفزع، وماذا في

ذلك؟!.. حتى بعض ممن هم غير مصابين بالإسبرجر يهابون الازدحام والوجوه الجديدة، والملامس الخشنة، فلكل منا فوبياه الخاصة.

أعرف أنني لم أُكن توحّدياً جداً، لم تُكن أعراض إصابتي بالإسبرجر تبدو واضحة كما هي الصورة النمطية للتوحد، كُنت مصاباً بالإسبرجر فقط! وأقول فقط لأنه عادة ما يصعب تمييز الإسبي، خصوصاً في مجتمع لا يزال مُتأخر الوعي كمجتمعي البطيء والحديث الوعي، حتى إن تشخيص الإسبرجر لا يزال صعباً ويتم الخلط كثيراً بينه وبين الكثير من الاضطرابات الشائعة؛ شُخصت مرة بالحرمان البيئي وكثيراً بتشتت الانتباه، وبفرط الحركة وأحياناً بكليهما، قبل أن يتم تطبيق مقاييس الذكاء عليّ وحصولي على نسبة ذكاء تبرهن على نبوغي وتفوقي العقلي، وبالتالي قاد أمي خط النبوغ هذا لأن يتم اكتشاف إصابتي بالإسبرجر.

شُخصت لأولِ مرة بالإسبرجر في عمر السبع سنوات، اضطرت والدتي لأخذي إلى عمّان ليتم تشخيصي هُناك بناء على توصية طبيبي الكندي في الرياض... أذكر ذلك اليوم تماماً، خرجت أمي من غرفة الطبيب الذي أجرى التقييم لي بعدما غابت في مكتبه لوقت طويل لا قدرة لي على تخمينه، كان انتظار أمي مُخيفاً، كُنت أنتظرها وحدي في غرفة الانتظار الصغيرة، وفي مكانٍ لم أُكن أعرفه قبلاً، الأماكن الجديدة كانت كفيلة بإفزاعي فكيف لو تركتني أمي أنتظر فيها وحدي!، تركتني أمي مع الكثير من القصص المصورة، كُنت أقرأها الواحدة تلو الأخرى علها تطوي الانتظار وتجيء بأمي فتنقذني من ذلك الانتظار وذلك الفزع.

خرجت أمي بعينين مُحتقنتين، وقفت ما إن رأيتها، كُنت أتأمل وجهها الذي لم أُكن قادراً على ترجمة ملامحه رُغم الدمع اللامع في عينيها، كُنت أنظر إلى وجهها متسائلاً عما خلفه، لم تُكن لدي القدرة على ترجمة الملامح وتفسيرها، لكنني كُنت أعرف أنه لم يكُن وجه أمي المعتاد ولم تُكن تلك ملامحها التي أعرف.

نزلت أمي على ركبتيها، أمسكت بيدي الاثنتين وقالت بصوتٍ لا أزال أذكره: أنت ولد عظيم يا ثنيان! أنا فخورة بك جداً!

احتضننتني بقوة من دون أن تنتظر ردي، ربما لأنها عرفت بأنه من الصعب عليّ فهم ماهية تلك المشاعر وأن أُجيبها بناء على ذلك الفهم وذلك التفسير.

أمسكت بيدي وقالت: ما رأيك أن نمر بمحل الآيس كريم قبل أن نطير إلى الرياض؟ فأجبتها بخوف:

لكنني لا أريد أن أصبح عصفوراً!

وقفت ونظرت طويلاً إلى وجهي وقالت:

أقصد قبل أن نذهب إلى المطار ونركب الطائرة ونعود إلى بيتنا وبابا وأخوتك في الرياض.

هل سنعود بالطائرة أم سنطير؟

سنطير بالطائرة مثلما جئنا على متنها.

حسناً!

أخبرتني أمي قبل فترة، أنها كانت المرة الأولى التي تلاحظ فيها أنني لم أكن أفهم الجمل المجازية، لذا لم أُكن أضحك على الطرِف غالباً، كُنت وما زلت أفهم ما يُقال بشكل حرفي، لكنني أصبحت أسأل من يتحدث معي عن أي جملة أشك في أن لها معنى آخر مُختلفاً عن المعنى الذي يبدو لي؛ أُدرك أن الأمر يبدو مُضحكاً للآخرين أحياناً لكنه التوحد، الغرابة، والاختلاف والعبقرية التي تبدو للآخرين كالبلاهة مراتٍ كثيرة.

تغيرت حياتي كثيراً بعد رحلة عمّان تلك، هدأت أمي، أصبحت أكثر قرباً ولطفاً وتفهماً وصبراً، ربما لأنها استطاعت أن تعرف أخيراً سبب غرابتي، قالت لي فيما بعد بأنها لم تكُن تخشى في رحلة التشخيص أن أكون مصاباً بالتوحد أو غيره، بل كانت تخشى أن لا تعرف ما بي فعلاً، فلا تقدر على مساعدتي.

يشعر الأهل بالعجز تجاه اختلاف أبنائهم أكثر بكثيرٍ مما يشعر أبناؤهم حيال أنفسهم، العجز وقلة الحيلة في بلد يخطو خطوات بطيئة، كسولة وخجولة تجاه التدخل المُبكر، ومجتمع ينقصه الكثير من الوعي تجاه تلك القدرات وتلك الاحتياجات وذلك الألم الذي لا يُخفف ولا يُعبر.

كُنت محظوظاً بأمي، التي تقول لي دائماً بأنني مقاتل في هذه الحياة، لكنني أعرف بأنها المناضلة بحق فيها، فقد كانت جسورة في كُل ما يتعلق بي، مثلما كانت جسورة في رسم حدود

حياتها قبل مجيئي وبعده، رغم ما أحدثه وجودي من فوضى ووأد لأغلب أحلامها إلا أنها لم تستسلم يوماً واستطاعت أن تخلق في كل يوم أملاً جديداً وحلماً آخر.

لكن ذلك لم يشعرني يوماً بالمساواة مع الآخرين أو بأنني مثلهم.

حينما تعثرت بالحُب لأولِ وآخر مرة، أي في المرة الوحيدة التي أحببت فيها!، شعرتُ فعلاً بأنني كالآخرين ولا أختلف عنهم في شيء، الحب وحده من جعلني أشعر بتلك المساواة، شعرتُ في الحب أنني وباقي البشر سواسية، لا يزيدون عني بشيء ولا أنقص عنهم بشيء!

جاء الحُب سريعًا وحزيناً، لا أعرف إن كان كُل حب كذاك الحُب.. ما أعرفه أنه أعتصر قلبي، مزق نياطه، ورُغم كل ما واجهني به العالم من قسوةٍ وسخرية ونبذ، لم يعجن قلبي شيء كذاك الحُب أو شبه الحُب الوحيد الذي استطعت أن أعيشه!

أشعر اليوم بأنني خاوٍ، خاوٍ تماماً.. ليس جديداً عليّ هذا الإحساس؛ فلطالما شعرتُ بذلك الفراغ الصامت بداخلي رُغم جعجعة الأفكار وأزيز المشاعر.

كل ما أردته هو أن أكسر هذا الصمت، أن أخترق جداره إلى ما وراء هذا الفراغ، الفراغ الذي لم يملأه في داخلي سوى أمي، وحُب من طرفٍ واحد، مات خديجاً فتمددت بداخلي خيوط العُزلة، وتضخم فيها الفراغ.

تتراءى لي دائماً تلك الصورة القديمة، تلك الأيام البعيدة التي قضيتها طفلاً غريباً في أعين الجميع، ذلك الاختلاف وتلك «الساحة» في بهو المدرسة ومنظر الأطفال وهم يلعبون وأنا أراقبهم في ركُن بعيد منزوٍ وهادئ، وفي يدي شطيرة جبن لم أجرب أكلها يوماً.

كُنت أعود كل يومٍ من دون الشطيرة، وكانت أمي تظن بأنني قد أكلتها، لا أعرف لماذا كانت تظن بأنني قد تناولت الجبن في المدرسة، أنا الذي لم أستسغ يوماً طعم مشتقات الحليب!، لم تسألني إن كُنت قد أكلتها ولم أكُن لأكذب لو سألتني حتى لو أردت الكذب.

كُنت أمنح شطيرتي في كل يومٍ إلى أي طفل قد يسألني إن أُعطيه إياها، مرة بدافع الخوف وأحياناً بدافع الشفقة، وغالباً بدافع التخلص من شطيرة لم أُحب طعمها يوماً.

لكن ذلك لم يقربني من أحد، ولم يقلّص المسافات بيني وبين بقية الأطفال الذين كانوا أذكياء بما يكفي لأن يشعروا باضطراري للتنازل؛ الحقيقة أنني لم أكُن طفلاً ضعيف الشخصية لكنني لم أكن قوياً بما يكفي لأن أفرض وجودي بينهم.

لم أعد توحّدياً جداً، الحق أنني لم أكُن توحدياً تماماً في طفولتي وفي مراهقتي، كان من السهل أن يلحظ الآخرون اختلافي عنهم، لكن مدى الاختلاف لم يكُن واضحاً جداً.. كُنت أبدو كطفلٍ غريب الأطوار، منطوٍ وغارق في العُزلة.

لم تكُن سمات التوحد الظاهرة بادية عليّ، كانت لدي سمات بسيطة وقليلة، خفّت حدة بعضها في سياق التدريب والتدخل الدائم، وتعلمت وتعلم من حولي كيف أتعامل مع بعضها الآخر.

لكنني، وعلى الرغم من ذلك لم أقدر على طرد المُختلف الذي بداخلي، لم أستطع التنصل منه أو الفكاك عنه، حاولت أن ألفظ تلك الجثة خارج صدري، ذلك الميت في أعماقي، وأن أنتهي من النهاية، أن أواجه ما ورائيات الموت حياً، والحياة موتاً.

حاولت تمزيق الشك، وترقيع اليقين، وحياكة بداية جديدة، أبتدئ منها أو أنتهي فيها، حاولت ترك فراش البؤس، والقفز من قمة الألم والغوص في نفسي، في ذاتي.. في الإنسان الذي خلقه الله بصورٍ مُتشابهة ومختلفة، حيثُ أجد أنني ضئيل للغاية، ضعيف وهش كباقي البشر.

لا يُدرك الإنسان كم هو ضعيف، وكم أن حاله قد يتغير في لحظة، مهما كان مُسيطراً على أمورِ حياته، مهما أحتاط وتجند واستعد.

تظل هُناك لحظة، تُعيد تشكيل حياته من جديد، تُعيده حيث البداية، أو تنقله إلى نهاية غير متوقعة، لحظة قد تجعل الإنسان إنساناً آخر، بمصيرٍ جديد، وحياة مُختلفة لم يتخيلها يوماً.

أفكر دائماً، كم عشت في حياتي تلك اللحظة؟!.. كم مرت في حياتي لحظات كهذه؟!

وكيف كانت كل لحظة منها، قاسية، جافة وموجعة، وكيف بإمكاني أن أستشعر كل هذا الألم رغم أنه يعتقد بأنني لستُ قادراً على استشعاره بهذا القدر وهذه الحدة؟!

حينما أعود إلى الكتابة بعد انقطاع، الليلة التي أكتب فيها بعد غياب عن الكتابة، دائماً ما تكون ليلة عاطفية وخاصة، تنهمر دموعي، يستكين قلبي، ويُبعث الدفء في روحي من جديد.

تُميز الكتابة الكتّاب من غيرهم، تمنحهم الإحساس بالتفرد، بالتميز وبالاختلاف، بينما تشعرني الكتابة بالتشابه، بأنني كبقية الناس ومثل كل البشر، لذا أحنُّ إليها كثيراً، أتشبث بها أكثر من أي شيء في الحياة لأنها تجعلني مُبدعاً، وليس بغريب الأطوار.

لطالما كانت الكتابة كالحُب، كانت تساويني بالناس، الناس الذين مهما حاولت أن أكون مثلهم تخذلني محدودية القدرة، وعُقدة التواصل.

أشعر بأنني غريب على هذا العالم، لاجئ إليه من حيثُ لا أدري وذاهب فيه إلى حيث لا أعلم.

تسألني أمي دائماً فيما إن كُنت سعيداً، يستوقفني السؤال بقدرِ ما تستوقفها الإجابة.

لا أعلم!، حقاً أنا لا أعلم.. أشعر أحياناً بأنني أرفض العزلة لمُجرد أن الناس يشعرونني بغرابتها، أرفض العزلة لاستهجانهم إياها، لا لكرهي لها.

أرقب عيني أمي وهي تسألني دائماً السؤال ذاته، يتوسلني سوادها الأدهم لأقول لها نعم، سعيدٌ أنا بالحياة وسعيدة هي بي!، هي تنتظر مني هذه المكافأة، أن أكافئها على كل ما فعلته لأجلي بأن أكون سعيداً فقط.

أتمنى أحياناً لو استطعت أن أكذب عليها، أن أخبرها بأنني اعتدتُ شكل الحياة، أو بأن الحياة قد اعتادتني، لكن أحداً منا في الحقيقة لم يفعل!، مازالت تربكني غرابة الحياة وبدورها ما زالت ممتعضة من غرابتي.

يقول الفيلسوف والأديب الفرنسي ريمي دو غورمون الذي قضى جُل حياته في عُزلة وفي وحدة بأن « علينا أن نكون سعداء، حتى ولو لغرض الاعتداد بأنفسنا فحسب»، وأنا أتوق لأكون سعيداً، لا لأعتد بنفسي فحسب، بل لتعتد أمي بي، ولتسعد بتلك السعادة.

استوقفني أحد الأسئلة التي قام بإرسالها أحد الصحفيين إلى بريدي « ما سبب سطوة الأم دائماً في رواياتك؟».

أغلقت الرسالة من دونِ أن أكمل بقية الأسئلة، أخذت أتأمل عصفوراً صغيراً يتنقل على شرفة منزلي، يقفز بنشاط يليق بصباحٍ ربيعي كذاك الصباح.

كُنت أفكر وأنا أتأمله، هل أُعاني حقاً عقدة أوديب؟!، هل أنا غير قادر على الخروج من دائرة أمي؟!، وإن كُنت.. فأين تكمن المشكلة؟!، لماذا أُتهم دائماً بهذا وكأن في ذلك تقليلاً من شأني وليست رفعة لي؟!، أهو وهم «الاستقلالية» أم أنني فعلاً أُعاني عُقدة؟

حطت عصفورة كبيرة، رمادية ومُمتلئة على الشرفة فجأة، مدت رأسها إلى الأسفل باتجاه فرخها الصغير، فتح منقاره فوضعت الطعام في فمه ومن ثم طارت ربما لتجلب طعاماً آخر، أغلقت شاشة حاسوبي المحمول وأنا أفكر، كيف يقدر الإنسان على العيش من دون أم؟!، كيف يقدر الإنسان على الشعور بالأمان بدونِ تلك السطوة؟!

* * * * * *

يُقال بأن الجدات لسن إلا ملائكة بلا أجنحة، وجه الرحمة العطوف الحاني في هذه الحياة، وبأنهن يحببن أحفادهن أكثر بكثير من حبهن لأبنائهن، ولأنني أتصور حجم حُب أمي لي، لا قدرة لي حقاً على أن أتصور أي حُب هذا الذي يفوق حُب الأمهات للأبناء!

لم تكُن جدتي أو «يمه منيرة» مثلما كُنا نناديها، تشبه ذلك النموذج الملائكي من الجدات اللاتي نسمع ونقرأ عنهن، لم تُكن عطوفة لكنها لم تكُن قاسية قطّ، كانت بين البينين، في منطقة صغيرة بينهما، تسعى لأن تعطف فتردها عن العطف طبيعتها الجافة وتربيتها الصارمة.

كُنت أفكر دائماً في صغري، كيف تكون هذه الأم النقيضة لأمي، أماً لها؟!، كيف زرعت فيها التقبل والحنان والعطف، وهي تفتقد لكل هذه المشاعر؟!

أذكر أنني سألت أمي عن جدتي، كُنا عائدين من منزلها في وقتٍ مُتأخر في ليلة من ليالي الصيف، كان الليل مُتأخراً، وكُنت أرقب البدر المنير من شباك السيارة على يميني... كانت أمي

تجلس إلى يساري، في المقعد المتوسط بيني وبين إخوتي، دائماً ما كان هذا هو مقعدها، تفصل بيننا كيلا يزعجونني ويضايقونني فأفقد رباطة صبري، وكي تقدر أيضاً على أن تُحيطنا جميعاً بذراعيها حينما نحتاج لأن تُحيط بنا، فنستكين تحت جناحيها كفراخٍ صغيرة تنام تحت جناحي أمها!

التفتُّ إليها، كان راكان يُسند رأسه إلى ذراعها نائماً، في حين يستند مساعد إلى كتف راكان نائماً أيضاً ، يلتقيان فيما يبدو في منطقة الأحلام مثلما يلتقيان دوماً على أرض الواقع، كانت يدها تستريح على ركبتي كالعادة، قُلت: أمي، لماذا لا تُحبني يمه منيرة؟

لِمَ ظننت أنها لا تُحبك!

لأنها لا تُحبني!

من المُستحيل أن لا تُحبك، طبعاً تُحبك كثيراً.

لكنها ليست لطيفة!

هي ليست لطيفة مع الجميع لكن هذا لا يعني أنها لا تُحبهم.

صمتُّ لأنني لم أعرف كيف أُفسر لها مشاعري وأفكاري تجاه جدتي، أنا الطفل الذي لطالما شعر بأن مشاعره بكماء وبأن أفكاره مصدوعة... كنت أضم كفيّ بين فخذي وأنا أحكّ بإبهامي اليمنى أظفار إبهامي اليسرى، سحبت يدي وأمسكتها واسترسلت: الناس يختلفون يا ثنيان في التعبيرِ عن مشاعرهم، يمه منيرة طريقتها في التعبير عن حبها لك ولكم جميعاً تختلف عن طريقتي في التعبير عن حُبي لكم، بعض الناس طريقتهم في التعبير عن حبهم بالأفعال وليس بالأقوال، تماماً مثل يمه منيرة.

أطرقت رأسي وأنا أفكر في أفعال جدتي بحثاً عن الحُب الذي تعنيه أمي، فقالت: دعني أذكرك، في كُل مرة تسلم فيها على يمه منيرة ماذا تفعل؟

تخفض رأسها لأقبله!

ضحكت أمي وقالت: صحيح، وإذا قبلت رأسها ماذا تعطيك؟

تخرج من جيبها حلوى مجفّفة وتعطيني.

أرأيت!، هذا ما أقصده، هي تقول لك إنها تُحبك من خلال الحلوى التي تعطيك إياها، هذه هي طريقتها في التعبير عن حُبها الكبير لك !

ولماذا لا تقول إنها تحبني؟

لأنها لم تتعلم هذا، لم تعلمها أمها ولم يعلمها الناس في ذلك الوقت أن الذين يحبونها يحتاجون لأن تُعبر لهم عن حبها بالقول والكلام.

وكيف علمتكِ أن تعبري بالكلام وهي لا تعلم كيف تعبّر؟

هي لم تعلمني هذا، أنت من علمني هذا.

أنا؟!

طبعاً أنت، أتظن بأن الأمهات فقط من يعلمن أبناءهن كُل شيء؟، حتى الأبناء يعلمون أمهاتهن وأبناءهن الكثير من الأشياء، أنا أتعلم منك كل يوم شيئاً جديداً.

ابتسمت بفرح فمسحت على شعري وقالت وهي تعبث به: أنت مُعلمي المُفضل!

لماذا تعطينا دائماً حلوى جافّة؟!

ضحكت: لا أعرف، فلنسألها عن هذه الحلوى في الزيارة القادمة!

التفت إلى الشباك، ليطالعني البدر يطل من خلف النخلات المُنحنيات بسعفها الأصفر الصفراء، والتي تملأ الأرصفة على يميني وعلى شمالي، سألت أمي وأنا أُطالع البدر ومن دون أن ألتفت إليها: أمي لماذا يلحقنا القمر؟

ابتسمت وقالت: لأنه يُحبك!

يحُبني القمر فيلحقني، وتُحبني جدتي فتُدس في يدي قطعة حلوى مُغلفة وجافّة، أرميها في سلة المهملات قبل أن أفتحها لأنها كادت تهشم أسناني في المرات السابقة.

لكُلٍ منا طريقته في الحُب، لُغات الحُب كثيرة ولكُل إنسان لُغته الخاصة في التعبيرِ عنه... كررت أمي على مسمعي هذه الكلمات كثيراً طوال سنين حياتي معها، ورغم اقتناعي بكُل ما قالته

وما تقوله وما قد تقوله إلا أنني لطالما تمنيت لو كانت لغة يمه منيرة أخف جفافاً وأكثر لطفاً، تمنيت لو أنني لمست الحُب بكلمات جدتي، فلا داعي لأن تقبلني أو تحتضنني، أنا لا أُحب القبلات ولا الاحتضان على أي حال، فهي تشعرني بالانزعاج وبالضيق، وبأنني حبيس ومُكبل!، كانت لتكفيني الكلمات.

كُنت أتأمل ملامح يمه منيرة دائماً، فتثير في داخلي الكثير من الأسئلة.. أتأمل تجاعيدها العميقة، قامتها القصيرة، جسدها المُمتلئ، والضفيرتين البرتقاليتين المائلتين إلى اللون الأحمر، المصبوغتين بالحناء والمُتسللتين من تحت شيلتها «المنيخل» والتي تفوح منها رائحة دهن العود الحادة، الرائحة التي لطالما ارتبطت بذهني لتذكرني بجدتي منيرة، بعصاها السوداء المذهبة، وبـ«مقاطعها» وفساتينها المُتشابهة، بأقمشة مُختلفة وألوان غامقة وبالتصميم نفسه الذي لم يتغير قطّ.

أذكر أن أمي قد تركتني عندها في أحد الأيام، كان والدي مُسافراً ومساعد وراكان يُعانيان حمى شديدة، اضطرت أمي لتركي في بيت جدتي لترعاني أثناء ذهاب أمي وإخوتي إلى المستشفى.

جلست إلى جانبها صامتاً، أضم يدي بعضهما لبعض واضعاً إحداهما بين فخذي كعادتي، وقدماي تتحركان بانتظامٍ كعقربي ساعة، كُنت أراقب عصاها التي تتكئ عليها وهي جالسة، لاحظت أنها ترفعها عن الأرض لثانيتين ثم تعيدها مرة أُخرى، كانت تحركها بانتظام مثلما أُحرك قدمي بانتظام، وكأنها تطرد قلقها بتحريكها مثلما أظن اليوم بأن تحريك قدمي بشكل دائم كان تعبيراً عن قلقي أكثر مما هو تعبير عن مللي .

قالت بصوتٍ عميق وبعيد وكأنه يأتي من الماضي: وش لونك أبوي ثنيان؟

الحمدلله.

رحت المدرسة؟

أيه.

وش لون المدرسة؟

كويسة!

وش كويسة!، ما في شيء اسمه كويسة، قل زينة وإلا قل الحمد.

رفعت نظارتي الطبية بأصبعي ورددت: زينة الحمدلله!

عادت تحرك عصاها وترفعها عن الأرض ثم تعيدها بعصبية وهي تقول: ايه ما نقول كويسة حنا، وش كويسة اللي يقولونها عيال ذا الوقت.

طأطأت رأسي صامتاً فقالت: وش فيك ساكت؟ سولف عليَّ!

يمه منيرة!

لبيه!

ليه وجهك معفط؟

هاو! ثنيان ما تستحي؟!، فيه أحد يقول لجدته وجهك معفط!

ايه يمه منيرة، شوفي هنا معفط.

قمت من مكاني واقتربت منها بتوجس، مسست وضعت يدي على تجاعيدها لأتحقّق ولأؤكد لها وقلت: شوفي كله معفط!

هذا موب معفط، هذا عشاني عجوز، أنت بعد إذا كبرت بيتعفط وجهك!

يمه منيرة!

سم!

أنتِ متى بتموتين؟

لا حول ولا قوة الا بالله!

رفعت رأسها ونادت بأعلى صوت «نينتا، نينتا..نينتا، تعالي خذي ثنيان يلعب بالحوش»!

جاءت الخادمة الفلبينية تجر قدميها بملل من اعتاد هذه المهمة، وضعت جدتي يدها على كتفي ودفعتني باتجاهها بعصبية « خذي ثنيان يلعب بالحوش وانتبهي له لين تجي أمه».

تبعت الخادمة وهي تتأفف بصوتٍ خافت وأنا أُفكر ما الذي اقترفته ليتقاذفنني كُل من حولي، يملّون رعايتي، ويثقلهم وجودي بصحبتهم.

شعرتُ بالسوء وبالذنب كالعادة، من دون أن أفهم أو أعرف السبب، هي من قالت إنها عجوز فلِمَ غضبت عندما سألتها متى ستموت؟، الأطفال قد يكبرون وقد يموتون، لكن العجائز لا مصير لهن إلا الموت!

أليست هذه هي دورة الحياة المُفترضة؟، ولادة، فطفولة، فشباب، فكهولة، فموت!

لن يتغير ترتيب الأزمنة في دورة الحياة مهما تشابكت الأزمنة، فلِمَ يخاف الإنسان الزمن الأخير؟!، يخشى تذكيره به ويتجنب الحديث عنه وكأن الموت سينساه إن تناساه أو كأنه سيتلاشى إن أغمض عينيه وصدّ عنه!

لم أكُن أفهم لماذا يخاف الإنسان البالغ الحديثَ عن المرض أو الموت وكأن الموت يغضب من الحديث عنه فيستبق الموعد والحضور لينتقم من مُغتابيه!

كُنت كمُعظمِ الأطفال، ممتلئاً بالفضول، مندفعاً، مُستكشفاً ومُتسائلاً، كُنت أطرح الكثير من الأسئلة لكن بصورة أكثر إلحاحاً عن غيري من الأطفال، كانت الأسئلة الوجودية تلحّ عليّ وتشقيني، يُحيرني من أين جئت، ويُمزقني إلى أين سأذهب!

لم تُكن تقنعني الأجوبة غير المنطقية بالنسبةِ إلى عُمري، وهذا ما جعلني أتخبط في دائرة الحيرة وأن أتعثر بمطبات التساؤل. كُنت قادراً على استيعاب فوضى التاريخ وعلى تجاوز عشوائية الجغرافيا، لكنني لم أقدر على تخطّي أفكاري تجاه ثنائية الموت والحياة، لم أقدر على تجاهل الغموض والجهل اللذين يكتنفانها.

كُنت بحاجةٍ إلى يقين يدحض الظنون، وحقائق تردم الشكوك، كُنت بحاجةٍ إلى قناعات ويقينيات وحقائق تُريح عقلي بعيداً عن مُخدر الاعتقادات ومسكنات الاحتمالات.

لكن الإنسان أضعف بكثيرٍ من أن يواجه تلك الحقائق المُجردة، يحتاج الإنسان لأن يُكذب عليه ولأن يُخدع أحياناً كي يطمئن ويرتاح، وقد يكون المرض والموت هما أكثر ما يحتاج إليهما الإنسان لأن يُكذب عليه بخصوصهما.

توفيت جدتي بعد سؤالي إياها عن موعدِ موتها بخمسةِ أيام وقبل أن تخبرني عن سر الحلوى الجافّة!

حينما جمعتنا أمي أنا وإخوتي لتطلعنا على خبر وفاتها، انكمشتُ في مقعدي، تضاءلت، خشيتُ أن أخبرهم بسؤالي إياها يوم تركتني أمي برعايتها، لأنهم سيعتقدون أنني من نبه الموت إليها، لذا تذكرها وجاء ليُنهي مُهمته المنسية وليشطب اسمها من قائمة المُستحقين والمطلوبين لعدالة الموت!

نادتنا أمي في صالة المنزل، قابلتنا بوجهٍ شاحب وأعينٍ دامعة وجفون ثقيلة وردية وأنفٍ أنهكه البكاء، طلبت منا أن نجلس لأن لديها أمراً مُهماً ستقوله لنا، اصطففنا على الأريكة الطويلة بعضنا بجانب بعض مُنتظرين الخبر الجلل، ورغم أنني لم أكُن أجيد قراءة الملامح إلا أنّ ملامح أمي لم تكُن كما اعتدتها، كانت ملامحها تشي بأن هُناك فاجعة لم يسبق لأمي أن مرت بمثلها.

جلست على طاولة الضيافة أمامنا، انحنت نحونا وكأنها ستهمس وستسر لنا بسرٍ، صمتت قليلاً لتبتلع دمعها، وقالت بصوت بُح من فرطِ البكاء: حدث أمر سيِّئ اليوم، حدث حزين وغير متوقع!

كانت تتفحص ملامحنا بعينين حانيتين وكأنها تحاول أن تقرأ وقع كلماتها علينا، استرسلت: يمه منيرة مرضت فجأة، مرضت جداً.. وحالتها خطرة جداً!

صمتنا جميعاً وعيوننا معلقة بعيني أمي، فقالت وهي تدمع: يقول الطبيب إنها قد تموت اليوم!

سألت: ستموت أم ماتت؟!

نظرت أمي إليّ بدهشة وقالت: لِمَ ظننت أنها ماتت؟

لأنها عجوز!

صحيح، يمه منيرة عجوز جداً ولا بد من أنها اشتاقت ليبه منصور، وأن يبه منصور قد اشتاق إليها، لذا حان الوقت لأن تذهب إليه في الجنة!

سألها راكان: هل ذهبت يمه منيرة إلى الجنة؟

أجابت: نعم!

سألها مساعد: هل ستعود؟

أجابت: لا، من يذهب إلى الجنة لا يعود منها، لكنها ستراقبنا من هناك وستكون سعيدة دائماً بنا.

قُلت: وكيف عرفتِ أنها ستذهب إلى الجنة؟

لأنها كانت طيبة، تصلي وتصوم وتساعد الناس والفقراء والحيوانات وتحبنا.

ربما لم تَكُن طيبة حينما لم تكُن عجوزاً وستدخل النار!

لم تَكُن أمي بمزاجٍ يسمح لها بالدخولِ في أية حوارات فلسفيةِ معي، أنا الذي لم أجد التفلسف إلا معها وعليها. قالت وهي تمسح طرف أنفها بمنديل هتكه الدمع: ندعو الله أن يرحم يمه منيرة وأن يدخلها الجنة مع يبه منصور، هيا استعدوا لأن نذهب إلى بيتها، سننام هُناك لثلاثة أيام، حتى الأربعاء.

سأل راكان: أسنغيب عن المدرسة؟

أومأت برأسها: نعم!

قفز أخواي من الأريكة وهما يصرخان جذلاً: هيييييييه!

راحا يركضان إلى غرفتهما ليُلملما ألعابهما، سألت أمي: هل أستطيع أخذ موسوعاتي العملية عن الدينوصورات؟

هزت رأسها موافقة ومن ثم غطت عينيها براحتي يديها وشهقت بكاءً، اقتربت منها، مسحت رأسها بيدي وقلت: لا تبكي، أنا سأكون أُمكِ!

رفعت وجهها إلي واحتضنتني وهي تبكي وقالت: أنت أبي! عوضني الله بك عنه..

أُفكر اليوم بمشاعر الأطفال الباردة تجاه الموت، في بساطتهم لتخطّيه ما دام لا يمس أحد الأبوين، وفي أخوي اللذين كانا سعيدين بعزاء يمه منيرة وبقضاء ثلاثة أيامٍ مع أبناء خالاتي في بيتها، والذين أخبروا أمي في طريق عودتنا إلى البيت أنها كانت أجمل ثلاثة أيام قضوها في حياتهم!

لم أحزن كثيراً لوفاة يمه منيرة، ربما لأن مشاعري دائماً ما تقع في مناطق الحياد، لكنني افتقدت الروتين والعادات التي ارتبطت بها وبوجودها،كوني الطفل الذي يتنفس الروتين رُغم خلقه من الفوضى.

لم تَكُن وفاة جدتي حدثاً يسهل على أمي تخطّيه، حاولت أن تحمينا من حمى الفقد التي أصابتها لكنها استمرت لأكثرٍ من عام وهي في غيبوبة حُزن، وبعد مضي أكثر من خمسة عشر عاماً على رحيلها، لا تزال أمي تتحدث عن فقدها بمرارة وكأنها قد غادرتنا ليلة البارحة.

تضخمت مشاعر أمي تجاهنا بعدما فقدت أُمها، عرفت عندما كبرت أن الإنسان حينما يفقد والديه الاثنين، يغدو بداخلهِ ركن خاوٍ، لا يُمكن أن يملأه أحد إلا من صلبه.

حاولت أمي أن تمتلئ بنا وأن تملأنا بها، حاولت أن تُعيد تشكيل مشاعرها تجاه والديها اللذين جاءت منهما، لإمرارها لهما من خلالنا، نحنُ الذين جئنا منها.

أصبحتُ أكثر قرباً، أكثر حناناً وتفهماً وقبولاً، ربما خشيت علينا من مغبة الفقد وعاقبة الرحيل، تخيلت حيواتنا من بعد رحيلها، فأرادات أن تمنحنا كُل ما يمكن أن تمنحه أم لأبنائها قبل أن تحزم حياتها وترحل.

لا أعرف إن كانت طبيعة يمه منيرة هي التي جعلت من رحيلها أمراً عادياً رغم غرابته بالنسبةِ إليّ، أم أنها طبيعتي أنا. في الواقع، لم تكُن الحياة سهلة بوجود جدتي، ولم تصبح الحياة صعبة بدونها!

فقدت طقوس اجتماعها بنا، وتلك الحلوى اليابسة التي لم أكُن أتناولها على كُل حال!

رحلت يمه منيرة من دون أن يخلف موتها فقداً في داخلي، فظننتُ أن الموت لا يجيء إلا على هذه الصورة، ولا يترك خلفه إلا مثلما ترك بعد أخذه لجدتي.

لم أكُن أعرف أن للموتِ وجهاً آخر، لم أعرفه ولم أتخيله إلا بعدما رأيت وجهه الآخر القبيح!

* * * * *

أحب الطرق السريعة فجراً، أفضل قطع تلك المسافات وحدي، أمتطي صهوة أفكاري، أحتضن صمتي وأصارع نفسي عبرها.

تمنحني بصمتها سكوناً يشبهني، مساحات شاسعة من الصمت والظلام، لا يقطعها إلا صوت مُحرك سيارة مُسرعة تمر بمحاذاتي، وقائد متهور يحاول أن يطوي مسافات الوحدة بتمزيقها تحت عجلات سيارته على النقيض مني.

أتأمل تلك السيارات وهي تعبر بسرعةٍ جنونية وأفكر في أولئك الذين يقودونها، هل يجاهرون بذلك الجنون نهاراً أم أنهم لا يكونون إلا أنفسهم بعد أن ينام الناس وتغمض الأعين؟

أنا أيضاً مارست كثيراً تلك الخطيئة، حاولت أن أكون ما لا قُدرة لي أن أكونه، أن أنفث نفسي خارج نفسي وأن أرتدي عباءة غيري، أن أشبه أي أحد عداي!، أن أضيع في تفاصيل الناس، وأن أفقد ملامحي إلى الأبد في سبيل أن أشبههم.

أُدرك اليوم بأنه يتحتّم عليّ أن أبتدئ، لطالما كان عليّ أن أبتدئ من نقطة ما، من مكان ما، من زمنٍ ما، لكني لم أبدأ يوماً، ظللت عالقاً طوال سنيني الست والعشرين الماضية في منطقة ما قبل البداية، لم أبدأ شيئاً لذا لم أنتهِ من شيء، ظللت على تماسّ مع خطوط البدايات، أرفع قدمي عنها ما أن ألمسها، ولا أعرف كيف سيقدم رجل على نهاية ما وهو يخشى كل البدايات!

أفكر أحياناً بأن هذا ما منحني إياه التوحد، ما منحتني إياه الغرابة.. ما منحني إياه الاختلاف، ما منحني إياه ذلك الشيء مهما كان اسمه!

لكم أتمنى لو أشعر بالكلمات، أن أفهمها مثلما يفهمها الآخرون وليس كما أفهمها وحدي، أن تغدو لعبة الكلمات أسهل بالنسبة إليّ ومن دون أن تكون كالكلمات المتقاطعة.

لا أعرف متى فقدت متعة الكتابة، متى لم تعد الكلمات تغريني مثلما كانت، لِمَ لم أعد قادراً على إغواء الكلمات، كيف فقدنا الرغبة بعضنا ببعض فجأة وخسرنا معاً تلك العلاقة؟!

اعتدتُ الخيبات، لم يعد الخذلان يمزقني كما كان يفعل، لم أعد هشاً لدرجة تدفعني فيها الكآبة إلى الكتابة.

فقدت القدرة على كلتيهما، الكآبة والكتابة، فامتلأت روحي بالفراغ وبذلك السكون البارد بلا همس ولا صدى.

قاتل هذا البرد، مميتة هي مساحات الصمت التي تتوسع داخل روحي بلا مدى ومن دون نهاية، وكأنه ينقصني السكون أو أفتقد الوحدة.

أعود لأقرأ تلك الرسائل من تلك الكاتبة المبتدئة، تطلب فيها مني أن أقرأ مسوّدة روايتها الأولى والتي كان بطلها مصاباً بالتوحد، لماذا أنا بالذات؟! أأدركت بطريقة ما أنني توحدي، «إسبي» ببعض السمات، «إسبي تائب» كما تداعبني أمي دوماً عندما تحاول الوصول إلى أي درجة بتُّ إنساناً طبيعياً.

أقرأ رسالتها مراراً وتكراراً، أحاول فهم ما فاتني فهمه، ما وراء كلماتها، تلك المباشرة التي لا أفهمها والتي يُخيل إليّ أحياناً أنني لم أفهمها.

أيكون طلباً عادياً كأي طلب أتلقاه في العادة؟!، تقييم من روائي لروائي آخر كما نفعل دائماً؟!

أم تراها أدركت عُزلتي وإن حاولت الخروج منها مراراً.

أنا لا أظهر في لقاءات تلفزيونية ولا في ندوات حية، لا أُشارك المثقفين ولا الكتاب مُنتدياتهم، أُجري اللقاءات الصحفية المكتوبة وأُقدم بعض الورش السريعة والقصيرة أحياناً لأكون

حقيقياً وليصدقوا وجودي على أقل تقدير بعدما كُنت لسنوات طويلة الكاتب الشبح الذي لا يوقع كتبه في معارض الكتب، ولا يظهر إلا على أغلفة الكتب الخلفية.

جاءت هذه المبتدئة لتقول لي ومن دون أن تقول بأنني فعلاً مُختلف، ترن جملة أمي في رأسي وقد قالت لي مراراً طوال حياتي: وماذا في ذلك؟! وإن ظن الناس بأنك مختلف؟ هم يختلفون عنك أيضاً، جميعنا مختلفون بشكلٍ من الأشكال يا ثنيان.

حسناً، وإن كانت تعرف أنني مختلف؟!.. «إسبي تائب»!، ما الذي سيغير في حياتي.. ما الذي سأُحرم منه؟!

تلقيتُ رسالة أُخرى منها، هي التي تُجيد الإلحاح!، تطلب مني الرد وكأنها تأمرني، تطلبني بلا استجداء وكأن الرد عليها واجب وفرض عليّ.

أجبتها بلا تحية، «لماذا أخترتني لأقيّم عملك؟!».

بعثت إليها بسؤال صريح ومباشر بانتظار جواب أكثر صراحة «لماذا أنا؟!».

جاءني ردها سريعاً، غامضاً وملتوياً «إن لم تكن أنت فمن عساه ليكون؟!»,

لم أكن بانتظار جواب يُزيدني ارتباكا وتشتتاً، لم أُكن مُستعداً أو قادراً على أن ألعب معها لعبة الكلمات.

ولماذا أنا؟

لأنك أنت!

تتحاذق، تُعقد مشاعري وأفكاري أكثر مما هي معقدة، قررتُ أن أتجاهلها، أن أقطع ذلك الخيط حتى لا تُحيك حولي شبكة الأفكار.

أُفتش عن أغنية أمي في اليوتيوب.. أُديرها..

hand and re down and troubled and you need a helping‹you When nothing is going right. ‹nothing

أذكر ذلك الصغير، تلك العزلة، الدائرة الفارغة حوله والصدى الذي يملأ روحه وصوته الذي لم يكن يفهم ما خلفه.

أذكر كيف كُنت أغمض عيني بقوة حينما أخاف، أسد أذني بيدي وأغني..

be there to brighten your eyes and think of me and soon I will Close up even your darkest nights.

تتردد في رأسي في كُلِ مرة أخاف فيها، حتى بعدما أصبحتُ رجُلاً.. مازلت أتشبث بها في أوقات خوفي وإحباطي وكأنها تعويذة النجاة الخاصة بي.

أصبحت أفضّل، إسبي تائب!، تطورت كثيراً، تغيرت جداً، لكني ما زلت ذلك الفتى في داخلي، تدربت على أن أجيد السلوك كما ينبغي عليّ أن أفعل، تعلمت أن أمثل بأني أشبه الناس، وأن أتقيد بالسلوك العام لأي إنسان طبيعي.. تدربتُ على هذا طويلاً!،أخفق أحياناً، أتعب أحياناً، أجتهد أحياناً أُخرى، وأجيد التقليد في أوقات كثيرة، لكني ما زلت ذلك الفتى الصغير العالق في تلك الحكاية، لا قدرة لي على إنهائها، ولا على تبرريها، ولا حتى أن أحكيها.

لكم أتمنى لو قدرت على أن أتعلق بالناس، بجماعة ما، بمكان ما، بفكرة ما، أتمنى لو أقدر على أن أتعلق بشيءٍ، عدا أمي، وبيتنا، وسيارتي، والكتب والأغنية القديمة تلك.

أتمنى أن أتخطى حدودي اللامرئية، وأن أكسر قيدي اللامحسوس، أن أتجاوز الاعتياد والتكرار والنمط والروتين.

أن أخلق في كل يوم عادة، وأن أُقدم في كل مرة على مغامرة، أن أصبح أشد جرأة، وأقل خوفاً، وأكثر مجازفة وأن أُنجب بنات أفكار، بدلاً من كوني ابن أفكاري العاقر والوحيد الذي لا يورث.

أقف في طابور الحياة بانتظار دوري لأحظى منها بقدرٍ سعيد. ألا يفترض بالحياة أن توزع أقداراً سعيدة أيضاً مثلما تمنح بعضنا ومنذ لحظة ولادتهم، شيئاً من تعاسة الأقدار من دون ذنب أو لا سبب؟!، أقف في طابورها آملاً بشيء من العدل، لا أقاصي الحزن ولا أدنى درجات السعادة، بعض

من هذا وذاك، مُزيج من البهجة والكآبة، شيءٌ من الراحة وقليل من الضيق، يوم لي ويومٌ علّي، لا فرج دائم ولا كرب مُستمر.

لكم أتمنى لو استطعتُ أن أحكي مع الحياة، أن نتناقش، تقنعني أو أقنعها، أفهم منها وتفهم مني، أن نوضح بعضنا لبعض هذا اللبس، أن نُحل العقدة، وأن نفض الخلاف.

أن تُحبني لأعود وأُحبها، أن تمنحني الشجاعة لارتكاب بعض الأخطاء، الأخطاء التي لم أرتكبها خوفاً من أن أوصم بالخطأ.

علمتني أمي كيف أُصبح حذراً، كبر الخوف في قلبي، زاد عقلي توجساً، وأصبحتُ أنام بنصف عين مفتوحة، أتحسس الجدران في طريقي، كيلا أخطئ فتلبس غرابتي ثوب الجنوح فأزيد الطين بلة.

لا قدرة لي على لوم أمي، لا يحق لي ذلك بعد كل ما فعلته وما قاتلته لأجلي!، أُدرك، ومن دون أن أصبح أباً، بأن أمي اختارت ما ظنت بأنه الأفضل لي، أرادت لي الدرب الأكثر أماناً، لم تسعَ لأن تضخم المشاكل في داخلي، فعلت كل ما كان بإمكانها أن تفعل، حملتني كصغير كنغر في جيبها، فلم أقدر على مغادرته خوفاً من غدر الغابة ومن فيها.

أحاول أحياناً التفكير بأبي، استحثُّ حضوره في ذاكرتي قسراً اعترافاً مني بأبوبته عليّ، لا يخطر والدي ببالي إلا حينما أحاول استحضاره أو حينما أقابله، فهو لم يكُن قاسياً قطّ عليّ، كان حنوناً في حضوره، يُحيطني بحُب غير مشروط، يداعبني كما لو كُنت قطة، لكنه لم يكُن فاعلاً أو حاضراً في حياتي طوال الوقت رغم وجوده فيها.

يقول والدي بأنه كان حريصاً على أن يقضي معي ومع إخوتي وقتاً نموذجياً «quality time» كما يسمّيه!، كانت النصف الساعة أو الساعة التي يقضيها معنا، يقضيها بحُبٍ في اللعب معنا، يقضي معنا أسبوعاً أو أسبوعين في إجازة الصيف، يتفرغ فيها لنا تماماً ويمنحنا فيها ذكرى سعيدة لا تُنسى.

كان ذلك مُجدياً في طفولتنا التواقة إلى الحرية والبهجة والكثير من العبث، استطاع بطريقته هذه أن يُعلي من أسهمه لدينا، فرجحت كفته لدينا بالمقارنة بكفةِ أمي التي كانت معنا كل الوقت

وطوال اليوم، والتي كانت تفقد أعصابها خلالها كثيراً بفعل الإرهاق والتعب والاحتكاك الطويل والمباشر بنا، أمي التي كانت صارمة في أوقاتٍ كُثر، تُعاقبنا بقدرِ ما تكافئنا وترسم الحدود والقوانين ولا تتساهل فيها مهما كانت الأسباب.

كان والدي بطل طفولتنا وربما لو كُنا لنُخير بينه وبين أمي لكُنا أخترناه بالإجماع وبلا تفكير أو تردد، لكننا نُدرك اليوم، وأُدرك أنا تحديداً بأن أمنا التي استطاعت أن تُربي ثلاثة شبابٍ مُختلفين تماماً بعضهم عن بعض، هي البطلة فعلاً، وهي من صنعت في حياةِ كُل واحدِ منا علامة فارقة.

اليوم سأختار أمي! سأُنحاز إلى نضالها، سأعتنق تضحياتها وقتالها من أجلي، أُدرك بأن أمي عاملت الحياة بندية، تحدتها من أجلي، سددت نظراتها القوية باتجاه الحياة معلنة التحدي.. وفازت بنا!

من الغريب أن أشعر بأنها فازت بنا!، لكنني أظنها فعلت، قبلتنا كم كُنا، باختلافاتنا وتخبطاتنا وتأرجحنا وتطرف أخوي ما بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وتمركزي في المركز الذي لم أتزحزح منه يوماً.

أحبت كل واحدٍ منا بطريقتها، وقبلت كل واحد منا على طريقته، وأظن بأنه هذا ما يتوجب على الأمهات فعله ليفزن بأبنائهن إلى الأبد!

تمرّ الذكريات في رأسي وكأنني محض ذاكرة، لا كإنسان يحمل ذكريات بل كذاكرة على هيئة إنسان!

طفولتي كانت لحوحة، تستعمر معظم ذاكرتي وأصعب ذكرياتي، لكم تمنيتُ لو قدرت على أن أحظى بطفولةٍ أكثر سهولة، أكثر بساطة.

يُخيل إليّ بأن كُل ما نحتاجه لنموت سعداء هو أن نحظى بطفولة سعيدة، يُخيل إلي أننا نعود إلى الطفولة حين يحضر الموت، يستدرجنا الموت إلى الخلف حتى نعود إلى سنواتنا الأولى.

يستعرض معنا وعلينا كل السنين، والتجارب والمارقين والعابرين، حتى نعود إلى الصرخة الأولى فنلفظ النفس الأخير ونموت وربما نرتاح.

كُل ما أردته هو طفولة سعيدة، كم سعت أمي لتمنحني إياها، كم حاول أبي بإنكاره لاختلافي أن يمنحني تلك الطفولة، تلك كانت طريقته اللا وعية لمساعدتي!، لكنني لم أحظَ بتلك الطفولة رُغم طيب النيات، ربما لهذا أسترجع دوماً تلك الذكريات، أحتج عليها، وأشعر دوماً بأنني بحاجة لأن أمحوها وأن أطمسها قسراً.

أقف دائماً عند موقف أبي ذاك مُتفهماً، أبي الذي كان ولايزال ينُكر اختلافي، أُدرك بأنه لا يفتعل هذا الإنكار، بل يُعيشه حقاً، أخافته كثيراً فكرة ذلك الاختلاف، كانت كلمة «التوحد» حينذاك مُرعبة وضخمة وبلا أمل، لم يستطع قبول ذلك، لم يستطع الإقرار بأن فرحته الأولى جاءت مُختلفة بشكل من الأشكال، أراد لي طفولة طبيعية، وشباباً عادياً ومستقبلاً بلا صعوبات، لم يُكن ليقبل بأن أعيش تحديات خاصة، ولا صعوبات إضافية، أرادني عادياً، طفلاً ورجُلاً عادياً لا أكثر ولا أقل!، لم يكُن ليقبل تميزي إن كان يُخالطه اختلاف، كانت ترعبه فكرة الاختلاف إن جاءت بمعزل عن خياراته.

والدي كان مُختلفاً، عاش طوال حياته وأمي مُختلفين عن النمط، عن السائد والمعتاد، لكنهما اختارا هذا الاختلاف والتفرد، لم يُجبرا عليه ولم يكن خيارهما الوحيد، بينما جئت أنا مُختلفاً بطبيعتي، بلا اختيار ولا سعي وهذا ما كان يمزق قلبه ويخافه، فجاء إنكاره حاداً ولا نهائياً، أحبني كثيراً، تفهمني كثيراً، قبلني كشخص عادي وعاملني على أساس ذلك، لكنه لم يقبل يوماً اختلافي ولم يُقر به قطّ.

أمي على العكس منه تماماً، لم تُمر بمنطقة الإنكار قطّ، قفزتها، وثبت من فوقها كفرس حرون، قبلت اختلافي بلا حدود، تعلمته، أحبته، أشعرتني لسنواتٍ طويلة بأن الله ميزني بهذا الاختلاف، أمسكت يدي طوال الطريق، ولم تفلتها في أي لحظة، لذا أشعر دوماً بالامتنان لها وبالانتماء إليها.

هي وحدها من أنتمي إليه، معها فقط لا أشعر بالغربة، الغربة التي تطوقني أينما كُنت وحيثما أذهب ومع أي شخص أكون.

حتى مع أخويّ اللذين يصغرانني، واللذين أرضعتهما أمي الانتماء، لم أقدر على أن أشعر بالانتماء إليهما بقدرِ ما شعرت بانتمائهما إلي، آخت أمي بيننا، لا ليس لأننا جميعاً أبناء رحمها، بل

لأنها أرضعتنا القبول والحُب اللامشروط، والالتصاق بعضنا ببعض مهما فعلت بنا وتجاهنا الحياة والأيام.

كُنا نؤمن رُغم اختلافاتنا بأن أخوتنا أمر مُسلم به، لا قدرة لأي قوة بالعالم على خدشها أو تحجيمها.

أنا مدين لمساعد وراكان أيضاً، لا لتحملهما غرابتي فحسب ولا للدفاع عني طوال حياتنا معاً، ولا لكوني أفسدت لحظات ومناسبات عديدة في طفولتنا، لا لإحراجي إياهما في مواقف كثيرة، ولا لمحاولاتهما المستمرة ومنذ أن ولدا لتفهمي، بل لأني سرقت منهما مُعظم وقت أمي واهتمامها.

بقدر ما أعرف كم كانت أمي مناضلة، بقدرِ ما اعرف أنها لم تُكن لتقدر على فعلِ كُل هذا من أجلي ما لم تمنحني من الجهد والمال والاهتمام والمتابعة أكثر بكثير مما منحت أخوي، ظلمتني الحياة فظُلما بسببي.

أعرف أيضاً بأنني لو لم أكُن مُختلفاً، لما اكتفت أمي بإنجابنا نحن الثلاثة، ولاستمرت في إنجاب المزيد من البنين والبنات، هي التي لطالما حلمت بأن تحظى بولدين وأربع بنات تعويضاً لها عن نشأتها بين ستة أخوة من الذكور، لكنها لم تحظَ إلا بنا نحن الثلاثة، أخوي وأنا الذي كُنت بمنزلة قبيلة من الأولاد!

بقدرِ ما بودي أن أُزيل ذلك الغبش الذي يفصل بيني وبين الآخرين، وكذلك العتمة التي تغشاهم، بقدرِ ما أود أن أنفض ذلك الوضوح العاتم الذي لم يقدر أحد على فهمه.

لم يفهمني مساعد وراكان قطّ، بقدرِ ما حاولا وما سعيا وبقدرِ ما ناضلت لأفعل، بقيت أكتنف الغموض بالنسبة إليهما، لكن ذلك لم يجتث أخوتنا، ولم يُحل بيننا قطّ.

أفكر دائماً، ماذا لو كان أحدهما الغريب!، ماذا لو تبادلت مع أحدهما الأدوار والأقدار؟! هل كُنت لأسعى لقبولهِ مثلما يفعلان معي، هل كُنت لأقبل انشغال أمي بأحدهما وتفضليها إياه عليّ لمُجرد أنه مُختلف؟!

لا أعرف، من الصعب عليّ أن أُقدر الأمور، وأن أتخيلها أو أن أُحللها، لكنني أُدرك بقلب الإنسان، أن كل ما قابلته من راكان ومساعد كان نقياً وخالصاً لا تشوبه الغيرة ولا يُعكره الحسد.

تُعزّي أمي نفسها دائماً بأن انشغالها بي جعلهما أكثر استقلالية واعتماداً على نفسيهما، تطمئنني دوماً بأنه لولا مساحة الحرية والثقة التي منحتهما إياها مُجبرة لما أصبحا شابين واثقين ومستقلين في دربيهما.

أظنُّ بأنها مُحقة في ذلك، استقل كل من أخوي بذاته لانعتاقهما من أمي، واعتمدت على أمي ُرغم أنني ولدتُ مُستقلاً عن العالم لأرتبط بها وحدها بناء على علاقة الخوف والحذر التي أحاكتها حولي وربطتني بها.

ببساطة استعبدني التوحد، وحررهما!

يرتفع صوت هاتفي مُنبهاً باستقبال رسالة إلكترونية جديدة لينتشلني من فكرة الحُرية والعبودية تلك، أفتح صندوق بريدي لأجد رسالة من الكاتبة المبتدئة مع سبق الإصرار.

«بانتظار ملاحظاتك على روايتي!».

فجة!، ماذا عساها أن تكتب بهذا الأسلوب؟!، أي منطقة مشتركة هذه التي قد نلتقي بها؟!، وأي رواية هذه التي قد أُهدر وقتي بالاطلاع عليها وكاتبتها بهذه الفجاجة؟!

تحتاجُ إلى صفعة، أجبتها: لم ولن أقرأها، لا تعاودي مراسلتي!

أرسلتها وأنا مُدرك بأنني قد أجد قريباً وسماً باسمي على تويتر، يُشهر فيه بغروري وغرابتي، لكنني لم أكترث!

* * * *

تخنقني هذه الوحدة، تطبق على رقبتي بيديها وتعتصر صبري، كُل ما أُريده وما أحتاجه الآن، أن أصرخ بقوةٍ هذه الوحدة، أن ألفظها من أعماقي، أن أطرد تلك السمكة الملعونة من محيط صدري فتموت وأنتهي منها إلى الأبد.

أشعر أحياناً بأن حُريتي قاب قوسين من صرخة، صرخة واحدة، أصرخ فيها تاريخي وحياتي، فأتخلص بها من كل مخاوفي وذكرياتي ووجعي.

أن أقفز من فوق جبلٍ عال، وأصرخ كل الوحدة، كُل العزلة والغرابة والألم، أن أنسلخ من جلدي، أن أخلعه عني وأنتهي منه.

أشعر أحياناً وكأنني عالق في عُنق الزجاجة، لم أقدر على اجتياز ذلك العنق ولا على التراجع، بقيت عالقاً في منتصف ذلك العنق، بلا إقدام ولا تراجع، أماسُّ المركز وأدور حولي في نقطة الارتكاز، أدور وأدور وأدور ويدور حولي العالم وتدور الأحداث والبشر وأبقى في النقطة ذاتها.

لكم أتوق لأن أُحلق كحمامة، أن أمد جناحي ليصبحا بحجم العالم أسفلها، أن أطير فوق العالم، فوق رؤوس الناس وأحلامهم، أن أتجاوزهم وأتعداهم فلا يعودون سوى نقاط بعيدة لا تعني شيئاً ولا تدل على أحد.

لم يكُن وقوعي برجنة كوقوع أي رجُل بامرأة، لم أكُن رجُلاً عادياً بطبيعتي، ولم تكُن امرأة عادية باختيارها وطريقتها.

لا أعرف إن كُنت أستطيع القول بأن رجنة امرأتي الأولى، أشعر أحياناً وكأنني أخون أمي بهذه الفكرة، لكن طبيعة علاقتي برجنة تختلف عن طبيعة علاقتي بأمي، علاقتي بأمي كعلاقة الشجرة بالأرض، لستُ إلا امتداداً لها، متفرعاً منها، متصلاً ومرتبطاً بها مهما كبرت وعلت ونضجت وارتفعت.

علاقتي برجنة يتخللها الكثير من الانتماء أيضاً، الكثير من الحاجة، لا أعرف ألأنها تكبرني بست سنوات أم لأن الصورة الوحيدة المتشكلة بذهني هي علاقة الرجل بأمه؟!

من الغريب أن يغرم الرجل بامرأة تكبره!، فهمت هذه الفكرة قريباً، لم أكن أُدركها قبلاً ولم أظن بأن العُمر يشكل في قواعد الحُب شيئاً.

بالنسبة إليّ لم يؤثر فيَّ أي شيء ولا أظن بأنني كُنت لأتنبّه لهذا الفرق لولا استهجان من حولي واستغرابهم من تلك العلاقة.

حينما تعرفت إلى رجنة، كنت في الخامسة والعشرين وكانت في بداية الواحدة والثلاثين، استوقفني اسمها أكثر بكثير مما فعل عمرها.

ربما أنا شخص معني بالأسماء أكثر بكثير مما يعنيه العمر بالنسبة إليّ، رجنة!، لأولِ مرة أسمع بهذا الاسم، بحثتُ طويلاً عن معناه قبل أن أسألها عنه.

كُنت أحاول التركيز في صوتها وما وراءه وهي تشرح لي معناه وكيف أنها أطالت البقاء في بطن أمها أثناء حملها بها حتى الشهر العاشر، فاقترحت جدتها أن تُسمى رجنة دلالة على رجونها في بطن أمها كدجاجة حنون تأبى أن تُغادر بيضها خوفاً عليه وتعلقاً به.

سألتها: إذاً فاسمكِ مقتبس عن الدجاجة!

ضحكت: كيف أصبحت كاتباً وأنت ترمز إلى الأشياء بهذه السطحية!

ربما هذه المهارة ليست نشطة في دماغي.

يرمز اسمي إلى الرجوح والرزانة.

من أين جئتِ بهذه الرمزية؟

هذا ما قُصد به.

وما علاقة الاعتقاد بالرمزية؟

نحن نرمز إلى ما نعتقده سواء أكان في وعينا أو في اللاوعي.

وبالتالي أنتِ تعتقدين بأنكِ راجحة ورزينة.

ليس بالضرورة أن أتلبس هذا الرمز، هذا ما تمنوه لي أو رُبما لهم!، لكن ليس بالضرورة أن أكونه أو أن أكون عليه.

يُقال بأن لكل واحد من اسمه نصيباً.

وما معنى اسمك؟

سُميت على جدي.

ضحكت: سألتك عن المعنى!

ثنيان هو صاحب الرأي الثاني، الرأي الأقل أهمية.

إذاً فرأيك لا قيمة له!

رأيي مُختلف دائماً، لأنني أنظر إلى الأمور من زاوية أُخرى، لذا فربما لا أهمية لرأيي فعلاً.

لو لم يكُن لرأيك أهمية، لما طاردتك طوال هذا الوقت لتُبدي رأيك في روايتي.

أعتذر لأنني لم أقرأها.

هل لي أن أعرف السبب؟

يزعجني الإلحاح كثيراً.

ظننت الإلحاح صفة ذكورية.

بل هو من شيم الإناث!

لن تقرأها إذاً!

ولِمَ يهمك رأيي تحديداً؟

أنت أصغر من حاز البوكر العربي!

لا يعني هذا بأني الأفضل.

ربما لست الأفضل لكنك استثنائي!

ربما لغرابتي!

غرابتك ما تُميزك!

صمتُّ فصمتت، ولأولِ مرة أشعر بأنني تجاوزت في حياتي كُل حدودي القديمة.

* * *

رجنت رجنة في قلبي، لم أكُن أعرف بأن الحب غريب إلى هذه الدرجة!، قرأت عن الحُب كثيراً، مررت بغزلٍ كثير، لكن الحُب جاء مُختلفاً وغريباً، ربما بقدرِ غرابتي واختلافي.

أفكر كثيراً فيما أردته من رجنة، وفيما أرادته مني؟!

أظنُ بأني بحثت فيها عن امتدادٍ لأمي، أردتُ امرأة ألقم معها المستقبل مثلما لقمت مع أمي كُل الحياة الماضية، أردتُ حضناً لا أخاف فيه من شيء، وامرأة تحميني وتترجم لي العالم، امرأة تصد الحياة عني وتردني عنها.

امرأة تحميني من أي اصطدام، وتُعينني في أي تشابك، تسندني بصدرها وأسندها بظهري.

محظوظة رجنة معي، وسيئة الحظ بي، محظوظة برجُل خاو من التجارب، بدأ معها وسينتهي بها ، وسيئة الحظ برجُل لن تقدر يوماً على فهمه ولن يقدر أبداً على فهمها.

ظننتُ بأن رجنة قادرة على أن تُعيد كتابة تاريخي، وأن ترسم خارطتي من جديد، أن تمسني بيدها فأغدو رجُلاً عادياً، يفهم ويُفهم، توقعت أنني من خلالها سأُغادر دائرة العُزلة وسأكسر قيود الاختلاف، أن أكون ثنيان صاحب الرأي الأول والأهم، وليس الثاني والمهمش كما يعني اسمي.

لا أعرف ما الذي بحثت رجنة عنه بي، ما الذي أرادته مني، وما الذي ظنت بأنها ستجده من خلالي، لا أعرف إلى أي درجة ارتفع سقف توقعاتها، ولا إلى أي قاع أوصلها خذلان غرابتي.

أدركت منذ أول يوم عرفت فيه رجنة بأنني مضطر لأن أتشبث بها حتى النفس الأخير.

فكرتُ في ماهية طبيعة الحياة، وعن المرأة الأولى التي نأتي للحياة من خلالها والتي تسلمنا في مرحلة ما من حياتها وحياتنا إلى امرأة ثانية، وكيف تفطمنا امرأة لتحضننا أُخرى، وعن تلك السلسة الطويلة أو القصيرة أحياناً والتي نتسلسل فيها من امرأة إلى امرأة، إلى امرأة، إلى امرأة.

كيف نعيش حيواتنا متضخمين بالرجولة، متوهمين القوة والسيطرة ونحن لا نقدر على العيش بلا امرأة ندعمها أو تدعمنا، امرأة نعذبها أو تعذبنا؟، كيف ترجح كفتنا في ميزان المساوة وكيف لا تتوازن، ونحن نجيء إلى الحياة من خلال النساء، ونعيش طوال الحياة تحت كنف النساء وبحثاً عن إكسير النساء الذي من خلاله نسعد في حيواتنا أو نشقى فيها؟

ظننتُ بأنني سأعيش طوال حياتي حبيس حُب أمي، ظننت بأنني قادر على أن أكتفي بها، وجاءت رجنة، واكتشفت أن للحب مع النساء أوجهاً كثيرة، بأبعادٍ عدة وأشكالٍ مُختلفة.

راقبت أمي علاقتي برجنة من بعيد، لم تدفعني إليها ولم تمنعني عنها، اتخذت الحياد، لا توجس ولا حماسة، تحفظتُ أيضاً معها بخصوص علاقتنا، أطلعتها على العموم واحتفظتُ لنفسي بالتفاصيل؛ دُهشت من نفسي، لم أعلم متى وأين وكيف تعلمت التحفظ!، أظن بأن والدي وإخوتي دهشوا أيضاً من ذلك، لكن تحفظي راقهم، بدوتُ لهم ولنفسي وكأنني قد بدأت أخيراً تعلم الحياة، خطوت خطواتي الأولى نحو الحياة الحقيقية من خلال ممر الحُب، السهل الصعب، الحنون والقاسي، المر والحلو، ممر الحب الذي نعبره من دون أن نُدرك إلى ماذا يُفضي وإلى أين سيأخذنا.

لم أكُن لأتخيل بأن هذا ما قد يمنحنا إياه الحُب، لم يُغير حُبي لرجنة نظرتي وتعلقي بالحياة فقط؛ حينما أحببتها، بدأت أشعر وكأنني ولدتُ من جديد، بلا صعوبات ولا تحديات، ولا تمييز.

شعرتُ بأن حائط الغرابة قد انهار، وبأن حاجز الاختلاف قد سقط.

لا أعرف ما الذي كانت تبحث عنه رجنة لتجده فيّ، ما الذي ظنت بأنها ستعبر إليه من خلالي، الحقيقة أنني شعرت بأنها تورطت بي بقدرِ ما تحررت بها، شعرت بأنها انغمست في دواخلي وكأنها حُقنت بي أو زُرعت بها.

لم أبحث كثيراً في العقدة التي جعلت رجنة تُحبني، لم أكترث لأي سبب، أردتُ أن أتعلم الاحتفاء بالنتيجة مهما كانت الأسباب.

أن أفرح بالحاضر الواضح وأن لا أعبأ بأي ماض غامض أو مجهول، لم يكُن في حياتي الماضية ما يُفسر، ولا أظن بأنني أحتاج لأن تبرر لي ما حدث في حياتها قبلي، احتجت لأن تقبلني كما أنا، لذا قبلتها بلا أسئلة، ولا توجس ولا تفكير.

حاولت أن ألبس اليقين، وأن أنزع الشك الساكن بداخلي منذ أن عرفت نفسي.

حاولت أن أتجاهل الإجابات، وأن أهمل الأسئلة، وأن أتعلم عني في حضورها ومن خلالها في كل يوم شيئاً جديداً.

حاولت أن لا أكون ذاتوياً معها، أن أشاطرها ذاتي، وأن أشاركها ذاتها. أن أغدو مطاطاً، وأن أحاول تهجي مرونة الحياة وفهمها.

أردتُ عالماً آخر، وحياة مختلفة، وثنياناً جديداً قادراً على أن يقرر المجازفة وأن يختار أي درب يسلك وإلى أي فريق سينحاز، أردتُ أن أشعر لأنسج الأفكار بدلاً من أن أُفكر لأُترجم الشعور.

جاءت هي بنسخة نقيضة، ممتلئة بالفضول، مُتعطشة للإجابات، ومُحملة بالأسئلة.

كان من الواضح أنها تبحث عن مرفأ أخير، استقرار آمن، وبداية هادئة لحياة مُخططة، روتينية ورتيبة.

كُنت أبحث فيها عن نور ، وكانت تبحث بي عن ظلال تحتمي تحتها هي التي عاشت حياة مُضيئة، ساخنة وساطعة.

صحيح أنني لطالما حلمت بامرأة تُشبه أمي، تحتضن شتاتي، وتلملم بعثرتي إذا ما تعثرت، لكنني لم أعبأ كثيراً حينما عثرت على رجنة، لم أكترث لتناقض رغباتنا واختلاف الحاجة، لم أكُن لأفسد على نفسي فرحة الحُب بأفكارٍ نستولوجية مُبتذلة.

خضب قلبي بالحُب، أينع، أزهر، استجديت يد النسيان ولم تأتِ فمُسح على قلبي بيد المغفرة.

لم يُعد يعنيني ما سلبتهُ مني الحياة، لم أعُد أفكر في كل ما فاتني، وفي ما مُنعت عنه وما سُرق مني، لم أعد أُفكر في الطفل الذي كُنته، أصبحتُ أُفكر فيما وهبت، وبما مُنحت وبالرجُل الذي لم أكنه وبته وأصبحت عليه.

أشعر وكأنني وثبت من القاع إلى القمة، وبأنني لم أعُد نكرة مثلما لطالما شعرت، لكنني خُفت كثيراً، خشيتُ أن أعود فجأة إلى قعر الوحدة ومعمعة التيه، مثلما غادرتها في محض مصادفة وفجأة.

لا ضمانات مع الحياة؛ مثلما خرجتُ فجأة، قد أعود فجأة!، لا قواعد ولا نظام ولا تحالفات مع القدر.

أخشى أن تفلتُ مني الحياة مثلما فلتُّ منها طوال حياتي، تلك الخيوط الوهمية التي كنت أتمسك بها في سبيل الحياة، حبال التواصل المتهرّئة لم تشفع لي لأكون على علاقة بها، لم توصلني إلى أرض مشتركة، ولا إلى مواجهة متكافئة معها.

لطالما كُنت الطرف الضعيف، الخصم غير اللائق، الضحية المثالية لتُمارس الحياة عليها تنمرها.

أفكر دوماً، ألا تتعب الحياة؟!، ألا تُنهك مثلنا؟، ألا تنهار قواها؟!

كيف لا يتعب الكون من الدوران، من الصراع، من محاولات السيطرة التي يحاول أن يفرضها علينا نحن البشر؟! لِمَ لا تعدل الحياة بيننا؟ وكيف نعيش طوال حياتنا متوجسين من غدرها؟

أدرك بأن تجاربي في الحياة بسيطة، سطحية، لكنني عشتُ وجعاً طويلاً جراء خوفي من أوجاع الحياة، تلك العلاقة القلقة التي كانت تربط بيننا لم تُشبع أحداً منا، لم تُسعدني، ولم تُرضها.

عشت طوال سني حياتي، وكأن عصفوراً حبيساً يعيش في صدري، تحيطه أضلعي كقضبان سجن، لم يقدر على مغادرتها ولم أقدر على التنفّس بُحرية وهو حبيس أضلعي.

طار الطير حينما عرفت رجنة، حُرر، حلق، فتنفست الصعداء وعرفت ماذا يعني أن تتنفس الحرية وأن تُحلق بلا قيود ولا تكبيل.

حينما فكرت بالكتابة، فكرت بها لأتحرر من ذاتي، لأتخلص من عار الاختلاف، لأحوره، وأكسوه كساء القوة، لأتكئ عليه بثقة، ولأغبط عليه، لا أن يشفق عليَّ بسببه.

نعم أنقذتني الكتابة، ليس بقدرِ ما أنقذتني القراءة التي حقنتني أمي بها منذ شهوري الأولى، لكن الكتابة أنقذتني في مراحل كثيرة، منحتني الكتابة صفة!، مهنة، هالة، واحتراماً.

جعلتني أشعر بالثقة، القدرة، الموهبة والاستحقاق، أنقذتني الكتابة، ربتت على كتفي بحنو، واحتضنتني كثيراً في ليالي الوحدة.

تسارعت وتيرة الحُب بيني وبين رجنة، حاولت أن أبرز لها ذكائي الخلاق، وأن أُخفي سذاجتي الاجتماعية، كُنت أعرف أن الذكاء الخام لا يُجدي في الحُب نفعاً، وأن الذكاء العاطفي هو

القادر على تشكيل أية علاقة، لم أُكن ذكياً عاطفياً بطبيعة الحال، لكن بساطتي في الحُب طمأنتها، أدركت بأن شاباً بسيطاً في الحُب مثلي لن يقدر على أن يجرحها أبداً، فوثقت بي أو ربما بقلة خبرتي وببساطة احتياجي.

تعلمت من علاقتي برجنة أن أتوقف عن طرح الأسئلة، كُنت كثيراً ما أسأل نفسي «لماذا»، لماذا أنا؟، لماذا يحدث معي هذا؟، لماذا يعاملني الناس بغرابة، لماذا، لماذا، ولماذا؟!، كان تدور رحى لماذا في داخلي، وتسحق الإجابات مشاعري وتطحنها.

لذا توقفت عن أن أسأل نفسي هذه الأسئلة، قررت أن أسمح للذكريات والأوجاع بالرحيل، أن أطوي تلك الصفحة، أن أتجاوز تلك المرحلة، وأن أنتهي من الشيء الذي أُدرك بأنه لن ينتهي بالطريقة التي لطالما أرادتها.

قررت أن أقبل بالحلول الوسطى، أن أقبل اختلافي، أن أحاول قبوله ما دُمت غير قادر على أن أُحبه، قررت أن أطمئن اللاطمأنينة في داخلي، وأن أحقن أوجاعي بمصل الرضا.

لم تدر الحياة كما أردتها، لم تسر الأمور كما ينبغي عليها أن تسير، لم أحيا الحياة التي لطالما سعيت إليها وخططت أمي لها، لكنه قدري، ومن يقدر على أن يصارع القدر.

* * * *

جاء لقاؤنا الأول بعد شهر من تعارفنا، كان شهراً سريعاً، جامحاً، شعرتُ وكأنه لم تغمض لي عين فيه من وهج الحماسة، رأيتها لأولِ مرة من خلال أحد برامج التواصل، كنا نتحدث لساعات من خلالها وفي نقل حي طوال الوقت.

وبسبب فارق العمر الذي كان بيننا واختلاف تجاربها وانعدام تجربتي، كانت ذكية بما يكفي لأن تُحرك خيوط علاقتنا بيديّ، أن تمسك بيديّ وتُدير من خلالهما علاقتنا.

استطاعت أن تشعرني برجولتي وأنوثتها، فلم أشعر قطّ بأنها تكبرني أو بأنني أقل خبرة.

اخترتُ مقهى تفصل بين طاولاته الستائر، لنتدارى خلفها أنا الرجل الذي تربكه نظرات الناس وهي المرأة التي كانت تتعمد جذب الانتباه في أغلب الأحيان، حجزت طاولة باسمي وسبقتها إلى المقهى، أبلغت النادل بأن هُناك طاولة محجوزة باسمي، جئت قبل الموعد بربع ساعة، خططت

لأن أسبقها لأحاول لملمة ارتباكي قبل مجيئها، ساقني النادل إلى طاولة مُغلقة الستائر كما طلبت، تأخرت عن موعدها عشر دقائق فبقيت أرتجف لأكثر من خمس وعشرين دقيقة، خوفاً من مجيئها وخشية من أن لا تأتي!

حينما فتحت الستارة، ابتسمت ابتسامة كبيرة، لا أعرف لماذا لم أقف حين رؤيتها، لكنها رغم ذلك انحنت عليَّ وقبلتني على وجنتي وهي تسألني عن حالي! ابتلعت ريقي وأجبتها «الحمدلله!»، جلست في مقعدها وفتحت حقيبتها بحثاً عن هاتفها مُتشاغلة به وكأنها تحاول منحي الفرصة لمُداراة ارتباكي ولملمة بعثرتي، فتحت قائمة المشروبات من دون أن أتكلم لكني لم أقدر على منع نفسي من أن أختلس النظر إليها.

كُنا قد تحادثنا كثيراً بمكالمات كثيرة بالصوت والصورة، لكن رؤيتها مباشرة بهذا القرب لم تكُن كتلك المكالمات!، رائحتها، حضورها، صوت أنفاسها الجريئة المباشرة، لم يكُن كأي شيء!

شعرتُ وكأنها أول امرأة أراها في حياتي!، وكأنها المرأة الأولى في الحياة، المرأة الوحيدة، حواء عصرها، مسكت بدورها قائمة الطعام، وتشاغلت بالنظر فيها.

مدت يدها وأمسكت بكفي بقوة، تشبثتُ بكفها كرضيع يمسك بأصبع أمه للمرة الأولى، صمتنا طويلاً، وكُل منا يتأمل يد الآخر التي يمسك بها.

قالت: أسنصمت طوال الوقت؟

قُلت: أنا أسمعك!

وأنا أسمعك!

أنا سعيد!

ابتسمت: سعيد فقط؟

ومرتبك!

ضحكت: وماذا أيضاً؟

وحُر.

حُر؟!

حُر، أشعر بأنني حُر.

ألست خائفاً؟

ربما، لستُ ماهراً بتحديد المشاعر.

وكيف أصبحت روائياً إذاً؟

لا أعرف، أظنُ بأنني أخمن المشاعر أكثر مما أستشعرها.

ضحكت: أنت غريب الأطوار على فكرة!

ارتبكت، شعرتُ بأنها قد الجرم، قُلت: أتقصدين بأنني إسبي؟

إسبي؟

أعني توحدي.

ضحكت وعادت لتفتح قائمة الطعام: غريب الأطوار لكن ليس إلى هذه الدرجة!

أخذت أتأملها وأنا أتذكر كلام الطبيب المعالج في مراهقتي، كان يحاول أن يشرح لي معنى أن أحمل بعض سمات الإسبرجر، قال: على فكرة، هُناك الكثيرون من الإسبيين في مجتمعاتنا ولا يُدرك وجودهم أحد، يعتبرونهم انطوائيين وغريبي الأطوار ولا أكثر، وأظن بأنك ستكون منهم.

ها هو التوحد يفترش الطاولة بيننا، في أهم لقاء في حياتي وأمام حُب عمري، ظننتُ بأنني قد تمكنت من نفضه عنّي، لكنه لايزال يطل برأسه من ورائي مهما حاولت إبعاد ظله، قد يختفي الظل نصف اليوم، لكن كيف يعيش الإنسان طوال حياته من دون ظله؟!

* * * *

عندما وجدت رجنة أضعت الكتابة، لم أعد قادراً على كتابة شيءٍ، لا أعرف إن كانت الكتابة تقتات على الوحدة، أم إن الحُب يُخيف الكتابة!، ما أعرفه هو أنهما لم يجتمعا في حياتي قطّ.

لم أكتب يوماً وأنا في حالة الحُب، ولم أُحب يوماً وأنا أكتب.

لا أعرف إن كانت عدم قدرتي على المزاوجة بينهما بسبب التوحد، أم إن الكتابة والحُب فعلاً لا يقترنان.

لم يُخيفني هذا الغياب، لم أخشَ صدود الكلمات عني، كُل شيء كان ليعوض غيابه إلا رجنة!

كُنت سأقدر على تحمل برودة العالم، ولامُبالاة الحياة، لكني لن أقدر على أن أكون نصف/ إنسان بعد اليوم، لن أعود لأحاول شغل فراغ لن يشغلهُ امتلائي، ولا لأن يعاود صوتي الصدى مثلما كان، قررت أن أتوقف عن كل المحاولات غير المُجدية لأن أكسر قالبي، وأن أوقف ثوراتي الصامتة تجاه الإقصاء، سأُهادن عزلتي، وأُقبل جبين اختلافي وأُذعن للأقدار التي لطالما قاومتها بلا صوت وبلا قوة.

أتأثر حينما تسوقني الذكريات إلى طفولتي، أُفكر في تلك الذاكرة الواعية لتلك الطفولة المتعثرة الخطى، والطفل الذي لم يسعَ لأن يكون طيباً بالفطرة صادق بطبيعته، لا أعرف إن كُنت سأختار أن أكون إنساناً طيباً لو كان بيدي القرار!، لا أعرف إن كُنت أخلاقياً بفعل الأخلاق أم بفعل التوحد!، هل أنا أخلاقيّ باختياري أم أُجبرت على أن أكون على هذه الأخلاق!

لم أختر قطعاً أن أكون شخصاً مُتشرباً بالسلبية، ولم أختر أن لا أفهم في خريطة الشر شيئاً، أختلق الحيوات على الورق، ولا أعرف كيف على الواقع تُعاش الحكايات.

أحاول أن أُحصن نفسي ضد الوجع، أن أتخلص من ذلك الغثيان الذي يُثيره وعيي تجاه اختلافي، أحاول أن أفهم كيف أكون واعياً بألمي إلى هذه الدرجة، وغير قادر على أن أعي منهج البشر وطريقة الحياة، كيف أكون شديد الحساسية تجاه نفسي وعديم الجدوى تجاه الناس؟

أحاول فهم تلك الكينونة التي لا تعني غيري، ولا تهم سواي من دون أن أنغمس بوجع البحث وألم النتيجة.

أن أُحب تلك الرسالة، وأقبل تلك الحصيلة، وأمضي قُدماً وأنا واعٍ بما يدور في جنبات قلبي، بقدرِ ما أنا واع بما يجول في دهاليز أفكاري ومتاهات عقلي الدقيقة.

تُهتُ عن العالم حينما عرفت رجنة، وجدت نفسي وأضعت العالم الذي لطالما حاولت اللحاق به والتشبث فيه، لم أُخلق لأمارس أكثر من شيئين في الحياة في وقتٍ واحد، أنغمس كثيراً، وحتى آخري في أي أمر أركز فيه، لكنني لا أقدر على التركيز في أكثر من أمرين، شيئين، شخصين، لذا تُهت حينما عرفت رجنة عن كُل شيء كُنت أعرفه أو كُنت أحاول التعرف إليه.

لم أكترث للأمر كثيراً، فلطالما أحسست بأنني دخيل بين الناس، غريبُ في هذا العالم، مُنشق عنهم أو غالباً هم المنشقون عني.

لم تكُن هُناك أي خسائر مُقابل الفوز برجنة، كان حصولي عليها سيطغى على كُل خسارة وأي فقد، لم أكُن أريد من الحياة إلا أن تعترف بوجودي فيها، أن تتوقف عن تجاهلي كإنسان على قيد الحياة، وأن تعتبرني كقيمة بدلاً من أن تعُدني صفراً.

لم أكُن أحتاج من الحياةِ إلا أن أعبر من خلالها ككُل العابرين، بلا مُحاباة ولا تسفيه، أن تعدني مثلهم وأن تراني كإنسان حقيقي بدلاً من أن تراني كطيفِ إنسان.

أن يتوقف الجميع عن الإحساس بأفكاري، لأتوقف عن محاولة تحليل مشاعرهم ومُحاولة مُحاكاة معانٍ لا أفهمها، أن أرتاح من محاولة تطويع ذاتي لتنساق مع ذوات الآخرين وتنصهر معها في نمط الذات العامة التي لا تشبه كينونتي.

أحتاجُ لمغادرة هامش الحياة، للرحيل عن تلك المساحة البرزخية، اللامرئية، اللا ملحوظة، اللا مهمة، وتصدّر الصفحة كما ينبغي عليّ أن أكون وكما من المفترض بي أن أفعل.

أحتاجُ لأن ألوك الحياة بداخلي فأستكين، كما كُنت ألوك ممحاتي في صغري وأرتاح، لا أعرف لِمَ كُنت أفعل ذلك، ولِمَ لم أستطع التوقّف عن فعل ذلك، رُغم الوعود الصادقة التي كُنت أعدها لأمي إلا أنني لم أتوقف عن تلك العادة حتى الآن، كُنت أجد نفسي حينما اضطر للتركيز في شيء أن ألوك ممحاة أقلامي، ورُغم أن تلك العادة لم تكُن لتضر أحداً غيري، وكانت تبقيني هادئاً وحاضر الذهن إلا أنها كانت تُغضب أساتذتي في المدرسة فأتعرض للعقاب من أجل ممحاة كُنت

أحتاج لتحريكها داخل فمي فقط لتساعدني على التركيز لا لأؤذي العالم من خلالها كما كانوا يشعرونني!

ناقشتني أمي كثيراً بخصوص تلك الممحاة/الخطيئة، باللينِ أحياناً وبالتأنيبِ أحياناً أُخرى، ظللتُ أعدها بأن أتوقف عن مُمارسة تلك المعصية، لكنني لم أتمكن من الإقلاعِ عنها، فعاقبتني بأقلامٍ بلا ِمماح، فلم أتمكن من لملمة ما تشتت من انتباهي، فتراجع مستواي الدراسي، وزادت حركتي في الصف وساء سلوكي، واضطرت أن تملأ حقيبة أقلامي بالكثيرِ من المماحي اللينة، تكاتفت معي كعادتها وتلقت بصدرها رصاص الرفض من المدرسة.

اضطرت أمي أن تتحمل الكثير من أجل تلك المماحي، لكنها قاتلت من أجل حقي في أن ألوكها، وظللت أحافظ على تركيزي كلما تشتت بممحاة صغيرة، أُديرها بفمي فتحزم ما تبعثر من أفكاري وتُعيد رباطه.

اليوم لا أحتاج إلى ممحاة لتهندم أفكاري، أحتاج إلى حياةٍ كاملة، إلى عالمٍ كبير، ألوكه في فمي، لأُحكم زمام أفكاري، ولأسيطر على مشاعري.

اليوم أحتاجُ لأن تدور الأرض حولي، عوضاً عن كُل السنوات الماضي التي كُنت أدور فيها حولها بلا توقف ولا استراحة.

أحتاج لأن أكون المُتحرك هذه المرة، بدلاً من السكون الذي لطالما مارسته أثناء حركة الحياة وحراكها.

لكن الحياة خذلتني ككُل مرة ، اجتثت كُل الطمأنينة التي أغدق فيها عليَّ وجود رجنة، انتزعتني من مساحات الأمل ورمتني مجدداً داخل دائرة الوحدة، الدائرة التي ظننتُ بأنني قد غادرتها لمُجرد أن رجنة مدت لي يداً فيها، أُدرك اليوم بأنني لم أغادرها فعلاً وبأنني لن أقدر يوماً على تجاوز حدودها، مهما مُدت إلي من أيدِ ومهما سعيت لأن أُغادرها.

لا أعرف لِمَ ظننتُ بأنني قادر على أن أكون ما ليس لي قدرة على كونه، كيف التبست أناي على أناي، وكيف ظننتُ بأن أحداً لديه القدرة على أن يُشكل ملامح طبيعتي من جديد، ويمنحني هوية لا تمتُ لكينونتي بشيء.

كيف ظننتُ بأن أحداً قادر على أن ينتشلني مما حاولت أمي منذ مولدي انتشالي منه، وكيف ظننت بأنني قادر على أن أعقد صلحاً مع هذه الحياة وهذا العالم؟، هكذا!، فجأة! أُغادر دائرة التعقيد وأحيا حياتي كما يحياها الناس، بلا اضطرار للتبرير، بوضوح، ومُباشرة، وسُخف وبساطة!

يُخيل إلي أنني خُلقت كي أزيد من تعقيد الحياة، وبأنني مدين لها من أجل الفوضى التي سببتها فيها مثلما هي مدينة لي بسبب العزلة التي أطبقت بها على عنقي.

لا صلح مع الحياة، لا اتفاق ولا هُدنة، لن أقدر يوماً على أن أكسبها في صفي ولن تعفو عني يوماً لتميط عن طريقي العُتمة.

محكوم أنا بهذه الوحدة إلى الأبد، حتى المحطة الأخيرة وربما حتى ما بعد النهاية.

أُفكر دوماً فيما تخبئه لنا ما ورائيات الحياة، في ذلك الطريق الذي لا ندري إلى أين قد يُفضي وما يختبئ فعلاً وراءه ، هل سأعيش هُناك كما سيعيش الأسوياء؟!، أم إنني سأوصم بالوحدة أيضاً في عالمٍ من المفترض أن لا تكتنفه وحدة ولا تتخلله قسوة ولا يعتريه الألم.

لا يعرف أحد معنى أن تكون حبيس فقاعة، تُحلق بك مسلوب الإرادة، لا قدرة لك على مُغادرتها ولا قدرة لك على استجداء أحد ليشاركك الحياةِ فيها، فتعيش حياتك مُتفرجاً على الحياة، عالقاً ما بين الحياة واللاحياة، مابين البداية واللابداية والغرابة واللاغرابة.

لا أدري لِمَ وهبتني الحياة رجنة ولِمَ انتزعتها مني، ما الدرس الذي أرادت أن تلقنني إياه الحياة من خلالها؟!، ولِمَ هي موجعة، مُفزعة، قاسية دروس الحياة؟!

مفجوعُ أنا بفعل المفاجئات، مصدومُ أنا بفعل اللامتوقع الذي تُباغتني الحياة به دوماً من دون أن ترحم عقلاً لا قُدرة له على أن يسيء الظن وأن يفترش بِساط الاحتمالات.

لِمَ لا ترحم الحياة تعقيدي البسيط وبساطتي المعقدة؟!، لِمَ لا تساعدنا على فهم كلّ جزء منها على حدة وأن نُقيم حاجزاً بينها، فنحلل التعقيد، ونُعمق البساطة.

ها هي الأشياء تتداعى، تتناثر، تعود كما كانت أشباه أشياء، يتلاشى الكمال ويتهشم اليقين وأعود إلى نقطة الدوران لأُمارس ذلك الطقس الذي لم أختره يوماً، فأدور حول نفسي كصوفي يُمارس تأمله راقصاً أو كطاحونة قديمة، تدور وتدور، بتعب، بيأس، وملل إلى مالا نهاية.

عُدت إلى كنف أمي بقدمين أجرهما جراً، اختبأت خلفها مثلما لطالما فعلت، عُدت لأعيش في ظلالها، لم تحاول أمي تضخيم نهاية علاقتي برجنة مثلما لم تضخم قبلاً علاقتي بها.

استقبلتْ نكوصي مثلما كانت تستقبل انتكاساتي سابقاً، ببساطة وتفهم وكأنها كانت تتوقع تلك الانتكاسة وذلك النكوص.

كُنت أفكر لِمَ لا يأخذنا الموت حينما نتمناه؟، لِمَ لا يأخذ الموت من يُريد الذهاب إليه؟، لِمَ ينتشل من ليس على استعدادٍ للرحيل فجأة؟، لِمَ يسرق الحياة من البعض رُغم أن غيرهم لا يتمنون إلا إياه؟!

تمنيتُ الموت كثيراً طوال حياتي، حتى في طفولتي تمنيت الموت، لكنني لم أرغب بإسدال ستار النهاية مثلما شعرت بعد رحيل رجنة.

كُنت أحتاج لأن تُغلق ستارة مسرحية الحياة، أن تُطفأ الأنوار، أن يُكبس زر النهاية، فنختفي، أو ننطفئ، أو نموت، المهم أن ننتهي وأن تنقطع كل الخيوط التي تربطنا بالحياة، كُل الذكريات وكل شوق وكل حنين وأن نغدو وكأننا لم نكُن.

لم تكُن أحلامي في صغري كبيرة، كانت مُختلفة لكنها لم تكُن قطّ كبيرة، كُنت نزاعاً للعيش بأقل ما يمكن أن تُقدمه لي الحياة. أذكر بأنني كُنت أجلس مع أمي على شاطئ البحر في إحدى إجازات الصيف التي كُنا نقضيها دوماً على الشواطئ من أجلي أنا المهووس بالتراب والماء وبالأصداف والحلزون، كُنت في السابعة أو الثامنة من عُمري، أحفر في الرمال البيضاء نفقاً مائياً، وأضع الأحجار على يمينه وعلى يساره كي أحميه من تيارات البحر، كانت أمي تجلس بجواري باسمة، تتأملني بوجه لم أكن أجيد تفسير تعابيره لكنني أُدرك في داخلي أنه مليء بالطيبة، قالت لي وهي تناولني قوقعة: ماذا تُريد أن تصبح حينما تكبر يا ثنيان؟

أجبتها بلا تفكير: أُريد أن أصبح ماما!

اتسعت عيناها وقالت: ماما!، أتقصد أن تُصبح أماً؟

قلت وأنا مشغول باللعب: لا، أريد أن أصبح أمي، أن أصبحكِ أنتِ.

صمتت فرفعت رأسي، لأقابل عينيها الممتلئتين بالدموع، قمت من مكاني واقتربت منها، وضعت يدي على خدها وقلت: هل أنتِ حزينة؟

قبّلت يدي وهي تمسح الرمل من عليها وقالت: أنا أبكي لأنك لطيف إلى درجة لا تعقل!، أتعرف أن الناس تدمع أحياناً من الفرح، ومن الفخر، ليس بالضرورة أن يدمع الناس حزناً.

حملقت في وجهها لأفهم لماذا تبكي، وضعت يدها على شعري وقالت موضحة: أبكي لأنني سعيدة بك، شكراً لأنك تُريد أن تكون ماما في المستقبل، لكني أقصد ماذا تُريد أن تعمل حينما تكبر، ما هي مهنتك؟

عُدت إلى اللعب بالرمل وقلت: أُريد أن أكون عاملاً باكستانياً فقيراً!

ولماذا تُريد أن تكون عاملاً باكستانياً فقيراً؟

لأنني أُحب أن أصلح الأشياء.

ما رأيك أن تصبح إذاً عاملاً سعودياً غنياً؟

هل أستطيع أن أكون عاملاً وسعودياً وغنياً؟

أنت سعودي في كل الحالات، لكنك تستطيع أن تكون عاملاً وغنياً لو أردت.

عاملاً سعودياً غنياً!

ابتسمت أمي رُبما لضآلة حُلمي، وربما لطرافته، لكنه كان عالمي البسيط المعقد الذي لم يفهمه غيري ولم يعنِ أحداً سواي.

أفكر في مساحات الطمأنينة التي وسعتها بداخلي رجنة، قبل أن تتضاءل وتصغر وتنحصر وتعود كما كانت مُجرد نقطة في أعماقي، لا تكبر ولا تتمدد ولا تتغير.

أفكر فيما لو ظلت تلك المساحات تتوسع، ولو امتدت أيام الطمأنينة أكثر، كم كانت لتتغير حياتي، كم كُنت لأتغير وأتطور!

عُدت لأستثمر عُزلتي، انغمست في الكتابة التي لطالما أعانتني على البقاء حياً، وغرقتُ في عوالمي الافتراضية التي لطالما كانت أحن عليّ من الواقع المحض والحقائق المُجردة.

أفكر دوماً في إن كان خيالي الناقص دوماً قادراً على دفعي إلى الحياة، ماذا يقدر لخيال الطبيعيين أن يفعل؟، أولئك القادرون على أن تمتد خيالاتهم بلا فجوات، ولا مساحات فارغة من اللافهم واللاتفسير!، أولئك الذين يتكاسلون عن الحلم، ينغمسون في الواقع حتى يخسروا القدرة على الخيال!

لم تعُد للحياة جدوى، لم تُعد بالنسبة إليّ إلا ديمومة من الوحدة والغربة، أبحث عني فيها بلا لقاء، أرقب الكائنات، الأشياء، الإشارات بنية خالصة للفهم أو الخلاص فلا أخرج منها إلا بالكتب التي لطالما كانت الوسيلة الوحيدة التي تقارب بيني وبين الناس.

أحاول أن أفض الحياة عني فتأبى أن تفضني عنها، أركلها فتتشبّث بقدمي آبية تركي أرحل عنها أو أن أنفصل منها، وكأنها تلقن العالم درساً من خلالي، أنا الحائر الغريب التائه العالق في منطقة الحياد وحدود الهوامش.

وجدت والدي يتسلل إلى حياتي فجأة، دائماً ما يكون حضور والدي في حياتي مفاجئاً، يحضر في الأوقات التي تدفعه أمي للحضور فيها، ليُمارس واجب أبوته مُجبراً، لا كرهاً لأبوته بل جهلاً بما يتوجب عليه منها، فجأة وجدته حاضراً في تلك المرحلة من حياتي بعدما كان الغائب/ الحاضر فيها، لا أعرف إن كانت أمي من دفعته إليّ هذه المرة أيضاً، أم أنه اقتنع أخيراً بأنني أحتاج إلى أبٍ يوازن المقاييس فترجح كفة الذكورة في مقاييسي كما من المفترض أن يكون.

لطالما تمنيت لو كُنت الابن الذي لم أكنه لوالدي!، الابن البكر الذي يتكئ عليه لا أن يُصعب الحياة عليه، وأعرف بأن والدي تمنى دائماً لو كان الأب الذي لم يكُنه بالنسبة إليّ، الأب الحاضر،

المُعلم، المُرشد، وأيقونة الرجولة.

لم تمنحنا الحياة العلاقة التي أردناها والتي كان من المفترض أن نحظى بها، لكنني أعرف بأن والدي حاول كثيراً دعمي، بحضوره أحياناً وبغيابه أحياناً أُخرى، أُدرك بأنه ظن في أوقاتٍ كثيرة بأنه يسديني معروفاً بغيابه عن المشهد، وبأن تسليمه كلّ مفاتيح التربية والرعاية لأمي كان في مصلحتي ولأجلي، لكنني كُنت أحتاج إلى وجوده أحياناً كي يعينني على فهم المعنى، على وصل أفكاري حينما تُقطع، ورقع أحاسيسي عندما تُجرح، كُنت أحتاج لأن أخرج من عباءة أمي ولأن أستقل عنها حتى كُنت خائفاً من مُغادرتها، احتجتُ لأن يعلمني أبي صلابة الرجال، أن يدمجني مع الآخرين على مسرح الحياة، لأُمارس دوراً ما، شخصية ما، بدلاً من كوني مُتفرجاً عليها، لا مرئياً ولا مسموعاً ولا محسوساً فيها.

لا أعرف لِمَ ألوم أبي الآن، لكنني ضجرتُ من التعب وتعبتُ من الضجر، من أنانية العالم وسطحية الناس، من ضحالة الوعي وانعدام الشعور بالأشياء، من تجاهل الأبعاد الأُخرى وازدراء الاختلاف والإنسان الآخر.

يحق لي أن أغضب من رجنة أيضاً، أن أبغض الحُب وأمقت الحياة، لكنني لا أعرف إن كان معي الحق في لومها على خذلاني والرحيل عني، أعرف بأن هذه النتيجة الطبيعية لحكاية كهذه الحكاية، وبأن أي امرأة كانت لتفعل معي الأمر ذاته، بأن حدود الاحتمال ضيقة، وبأن حظوظي في النجاح بعلاقة عاطفية لم تُكن ولن تكون في يومٍ ما خالصة أو قوية، وبأنني سأكون دائماً الطرف المهجور، المخذول، المكسور بعد الرحيل.

لا أعرف إن كُنت قادراً على المُغامرة من جديد، لا أعرف إن كُنت قادراً على المجازفة مرة أُخرى فأخوض في تلك اللعبة التي لن أكافئ فيها أية أطراف، ثقيل قلبي بفعلِ الهجر، ثقيل إلى درجة أن أنفاسي تؤلمني حينما أزفرها، لا أعرف إن كُنت قادراً على خوض هذا الألم من جديد، لا أعلم إن كان شخص مثلي مهيأً بالفعل لأن يُحِب ويُحَب وأن يتجاوز الفقد ويقبل الخسارة.

أجلس مع إخوتي وأصدقائهم، أرقب تلك العلاقات التي تربط بينهم ولا أفهم كيف يقدرون على تشكيلها ونسجها بكل تلك السلاسة، أحاول أن أكون جزءاً من المعادلة، أن أُشاركهم الحديث والأفكار، أشعر بالفجوة تكبر أحياناً وتصغر أحياناً أُخرى، لكنها لم تختفِ يوماً ولن تختفي أبداً،

يحاول إخوتي تصغير الفجوات وتقريب المسافات كما علمتهم أمي، لكني أظل غريباً بين غرباء وإن عرفتهم وعرفوني.

أحاول التشبث بأي فرصة للسعادة، بأدنى فكرة قادرة على أن تجعلني سعيداً أو حتى شبه سعيد، تتخبط المشاعر في وجداني وتترجّح الحقيقة ما بين الواقع والتمثيل، التلقائية والادعاء، وأظل في نهاية الأمر وحيداً، مُشتت الأفكار، ومُبعثر المشاعر.

لا أعرف كيف كُنت لأعيش من دونِ أمي، ولا كيف كانت لتكون حياتها بدوني؟، أكانت لتكون أسعد؟!، أهدأ؟، أكثر ارتياحاً وأخف قلقاً؟ زوجة سعيدة، وأماً مطمئنة بلا تحديات شبه مستحيلة ولا معارك مع ما لا يُفهم.

أشعر أحياناً بأنني لم أفسد أمومة أمي فحسب، أشعر أنني قد أفسدت عليها وعلى والدي زيجتهما، حكاية الحُب تلك التي تدمع عيناها حينما تحكيها لنا، كانت لتكون أسعد لو لم أُكن الثمرة الفاسدة فيها، لو كُنت مكتملاً، مثالياً، نموذجياً لما عاشت أمي مع أبي في صدامات متكررة لم ينقذ زواجهما منها سوى ذلك الحُب القديم الذي يبدو وكأنه وهن بفعلِ التحديات التي واجهاها لوجدي بينهما.

عندما كُنت صغيراً، كانت تتلقفني الأفكار قبل النوم، لأقضي ساعتين أو ثلاثاً في فراشي قبل أن يغلب عقلي النوم فتنهار أفكاري وأنام، كُنت أفكر دائماً بالأخطاء التي ارتكبتها طوال النهار، والتي كانت تبدو لي وكأنها من ترتكبني، تتربص بي وتصطدم بي بلا قصد مني، فأقع فيها بلا حيلة ولا سعي.

كُنت أُنازع تلك المشاعر كل ليلة، الشعور بالعجز وعدم الإدراك حيال ما حدث، وبين تأنيب الضمير الذي كان يمزقني لارتكاب تلك الأخطاء، كنت أشعر بالأسف فعلاً لارتكابها لكنني لم أكُن قادراً على التعبير عن ذلك الأسف حينما تباغتني تلك الأخطاء.

كُنت أتسلل في ليالٍ عدة إلى سرير أمي، أندس بجوارها وأضع رأسي على ظهرها، تلتفت إلي وتحتضنني كمن كان يتوقع حضوري وتقول: ما بك يا ثنيان؟ لِمَ لم تنم؟

أنا آسف.

على ماذا؟

الأخطاء!

أية أخطاء؟

كلها.

أعرف أنك لم تقصد ذلك، هل تعدني أن لا تكرر تلك الأخطاء؟

لكنني سأرتكبها مُجدداً!

ولماذا تعيد ارتكاب الخطأ إن كُنت آسفاً عليه؟

لا أعرف.

وما زلت لا أعرف ولا أفهم كيف لا تتطابق مشاعري مع ما يتطلبه العالم، ولِمَ هو صعبٌ عليّ إصلاح الأشياء وإنقاذ المواقف، لِمَ تتشابك أفكاري ومشاعري فيصعب عليّ تفسير الأفكار وترجمة المشاعر!

مرت الأيام بطيئة بعد رحيل رجنة، كُنت أستيقظ على وهنٍ وأنام على وهن، كان يشعرني الشوق بالغثيان وكأنني في حالة انتظار إلى أجلٍ غير معلوم وغدٍ مجهول الملامح.

لا أعرف ماذا أنتظر، ومتى ومن سينتشلني من هذا الوهن؟، كم سيُكلفني ذلك الرحيل لأنهض من بين رفات تلك العلاقة، حاولت إيقاظ نفسي من ذلك الركود الذي كان يُسيطر عليها، حاولت أن أنهض وأن أتعلم الاكتفاء بذاتي، أن أكفّ عن سؤال الآخرين إقحامي في عالمهم أو اقتحام عالمي، وأن أكتفي بذلك الخواء الذي يملأ روحي تجاه نفسي وتجاه الناس.

يحاول مساعد وراكان إقناعي بأنني لم أُحب رجنة فعلاً، يظنان أن علاقة سريعة كتلك العلاقة من المستحيل أن تكون علاقة حُب حقيقية، لا أعرف إن كُنت قد أحببت رجنة فعلاً، إن كان ذلك ما يسمى بالحُب، كانت رجنة تجربتي الأولى، المرأة الأولى التي لامست حدودي إلى ذلك الحد، المرأة الوحيدة التي دلفت إلى تلك الرقعة التي لم يكُن فيها أحد سواي، ربما ليس هذا الحُب الذي يعرفونه، لكنها المرأة الوحيدة التي عرفتها والتي فهمت من خلالها كيف من الممكن أن يكون

شكل الحُب، الحُب الذي كُنت أقرأ عنه، والذي كانوا يصفونه لي فيستعصي على مخيلتي تصوره رُغم محاولاتي للإحساس به وتصويره في رواياتي.

لا يفهم أحد كيف تتشكل مشاعري وأفكاري، ما هي ماهيتها، من أين تأتي وبما تمر وإلى أين تذهب، يسألني راكان دائماً كيف أقدر على وصف ما أزعم بأنني لا أشعر به؟!، كيف أكتب ما لا أفهمه وما لا قدرة لي على الإحساس به؟

أليست هذه ميزة الكُتاب؟، أن يصفوا كل ما لا قُدرة لأحدٍ على وصفه؟!، أن يحولوا الكلمات إلى مشاهد مرئية، مسموعة، ومحسوسة برائحة وملمس وصوت وطعم أحياناً؟!، ربما هي «قُدرة» يملكها بعض الروائيين، وربما هي مُعجزة بالنسبة إليّ، بتكويني المُعقّد وقدراتي المحدودة.

أُفكر دائماً كيف أكون محدود القدرات في بعض الأمور، وكيف تفوق قدراتي الطبيعة في أمور أُخرى؟، أُفكر في القوة التي وهبتني هذا التفوق وابتلتني بهذا التأخير؟، باليد التي منحتني وحرمتني في الوقت ذاته؟ بالأجزاء التي تنقص أُحجية العزلة، وبمعنى وجودي في الحياة؟، ما المعنى؟، ما المغزى من كل هذه اللعبة؟

أأكون ابتلاء لوالدي، لإخوتي؟! ، درساً لهم؟، مُجرد رحلة عليهم أن يخوضوها ليتعلموا منها شيئاً أو يثبتوا من خلالها شيئاً؟، أُيعقل أن لا يكون لي قيمة كإنسان؟!، مُجرد محطة في حياة الأسوياء، أو مُجرد درس، أعبر في حيواتهم ليتعلموا مني، وأنتهي وأتلاشى بمجرد أن يستوعبوا الدرس!

أشعرُ دائماً بالحياء تجاه الحياة، أشعر بأنني غير جدير بالعيش فيها، وكأنها مُتفضلة عليّ بإبقائي على قيدها، وكأنني شبه إنسان، طيف مشاعر، وفكرة ضبابية لا تمت إلى البشر الكاملين بأيّ صلة.

أشعر أنني ناقص بالمقارنة مع كل الناس، بالدونية أمامهم، لذا أميل إلى الصمت في حضورهم، لذا أنحاز إلى العزلة وأختار الانطواء، رُغم أن أمي لم تُنشئني على هذا؛ أعرف أن أمي اختارت أن تُربيني كشخص عظيم، مُتفرد، مميز واستثنائي، سعت وحاولت أن تخلق عملاقاً في داخلي، لا يكترث بما يظنه الناس ولا بأحكامهم تجاهه، لكن يد البشر طالتني، شوهني التنمر وقسوة الحياة، فتضاءل العملاق وصغر، وانكفأت على نفسي مُنغمساً في عُزلتي ومتشاغلاً باختلافي.

أفكر دوماً، كيف من السهل أن يُخلق الإنسان كإنسان؟ وكم من الصعب عليه أن يحافظ على إنسانيته من دونِ أن تُعكرها الحياة ويشوهها الإنسان الآخر، الإنسان الذي لم يقدر على المحافظة على إنسانيته أيضاً والذي تشوه بفعل إنسان آخر مشوه.

أفكر في تلك السلسلة المشوهة الإنسانية، وكيف تُمارس تشويه الآخرين بعدما تشوهت، ولما يفعل الإنسان بأخيه الإنسان كُل هذا؟!، لِمَ يوزع القبح، ينشر الزيف، ويُبيح الإهانة؟، ولِمَ يظن بأنها سُنة الحياة وبأنه من الطبيعي أن نحيا الحياة كمرتع خصبٍ للألم!

حينما أكتب، أُفكر بأولئك الذين يشبهونني، بالإسبيز، بالتوحديين، بالانطوائيين، بالمُنعزلين، بالوحيدين، بالمتقوقعين على أنفسهم والمنكفئين على ذواتهم، أفكر بالمساحات التي نتشارك فيها، بالأفكار التي قد نلتقي بها، بجوهر ذواتهم وصلب ذاتي، وكيف كُنا سنعيش معاً لو عشنا كُلنا في جزيرة واحدة، كيف كنا لنُدير الحياة؟، كيف كانت لتكون ملامحِ أيامنا؟، كيف ستتشكل علاقتنا بعضنا ببعض من دون تدخل الأسوياء، وتوجيه حيواتنا وفق ما تقتضيه رؤاهم؟

التقيت بعض التوحدين خلال رحلة التدريب والتعايش مع الحياة، كانوا قلة قليلة، رُبما لبساطة وعي المُجتمع بأهمية تأهيلهم أو ربما لتكلفة تأهيلهم الضخمة التي لم تُكن أي أُسرة قادرة على توفيرها لأبنائهم، كُنت ألتقي بعضهم في عيادات التدريب ومراكز التأهيل، لم أكُن أعرف كيف أتواصل معهم في صغري، وعندما كبرت، بحثتُ كثيراً عنهم، ألتقيت بعضهم، لكنني لم ألتقِ يوماً أحداً يشبه حالتي أو حتى بالسمات نفسها، كانت السمات تختلف وتتفاوت حدتها ما بين شخصٍ وآخر، لم ألتقِ يوماً أحداً يشبهني ولم ألتقِ توحديين بالسمات نفسها والحدة ذاتها، لم تساعدني رحلة البحث تلك في شيء، لم أقدر على خلق صداقة، ولم أستطع رؤية الحياة من زاوية أُخرى مُختلفة عن زاويتي.

من الغريب أن يصدمني التوحد بقدرِ ما يصدم الأسوياء، من الغريب فعلاً أن لا أقدر على تجاوز تلك المساحات بيني وبين بعض التوحديين، لطالما ظننتُ أن قعر العُزلة واحد، وأننا جميعاً عالقون في بئر الوحدةِ نفسها، لكنني اكتشفت أن للعُزلة أشكالاً مُختلفة، لكلٍ منا عزلته الخاصة، وحدته التي لا تشبه وحدة الآخرين، كُل منا عالق في مأزقه الخاص، عالق في دائرته ولا أحد منا قادر على أن يُغادرها أو ينتقل منها حتى إلى دائرة توحدي آخر، لا تتشابه مآزقنا، ولا تتقاطع دوائرنا ولا نتشارك إلا بالغرابة التي تتباين حدتها بقدرِ الاختلاف.

أعرف بأنني ميال إلى الكآبة، أظن بأنه ذلك بفعل التوحد، خُلق دماغي بتكوينِ كئيب، يميل إلى الاضطراب، إلى الذعر، إلى الحساسية وإلى الكآبة أكثر من أي شيءٍ آخر.

دائماً ما يُشاع عن الكُتاب، الروائيين، الموسيقيين، والرسامين أنهم مضطربون نفسياً وعقلياً أحياناً، غالباً ما نجدهم عالقين في مناطق القلق والكآبة، ورُغم أنني أؤمن بأن هذا ما هو إلا نتيجة حساسيتهم المفرطة تجاه كُل شيء، ورغم إدراكي بأن هذه الحساسية المتطرفة هي المحرك الحقيقي لقدراتهم على الإبداع والخلق، إلا أنني أظن أحياناً بأن تكوين أدمغتهم يحوي تلك المناطق العميقة المظلمة وهي ما تدفعهم للإحساس وجدانياً بكل شيء وترجمته إلى منحوتة، رواية، لحن، لوحة أو قصيدة.

تتفاوت حساسية البشر بعضهم تجاه بعض وتجاه الأشياء، لا ينظر جميع البشر إلى الحياة بالعيون نفسها، لكل منا عينه التي يُطالع الحياة من خلالها، تختلف ألوان الحياة من عين إلى أُخرى، تختلف زواياها، شكلها، طبيعتها، يختلف إحساسنا بها ومشاعرنا تجاهها.

يعبر بعضنا من خلال الحياة بلا مبالاة، يُبالغ بعضنا الآخر بالعبور من خلالها بجدية، يعتبرها بعضهم عبئاً، ويراها آخرون كعبث، بعضنا تُسيره العواطف وبعضنا الآخر تسيره الأفكار، نختلف كثيراً في رؤانا، حساسيتنا، تعابيرنا، تعاطينا مع الأفكار لكننا نتفق جميعاً على أننا بشر.

أحنُّ أحياناً إلى طفولتي الغريبة البعيدة، رُغم الصعوبات التي واجهتها فيها، ورُغم التنمر والتمييز الذي كُنت أتعرض له، أحنُّ إلى حماية أمي المشروعة حينذاك رُغم مبالغتها فيها، وإلى اطمئناني وشعوري بأن كل شيء سيكون على ما يرام ما دامت أمي موجودة، كبرتُ اليوم وكبر عالمي، وأُدركت حينذاك بأن أمي لن تقدر على حمايتي من هذا العالم وأولئك الناس.

تجاوز الأمر قدرتها، وتخطى الأمر مداها، فقدت السيطرة رغُماً عني ورُغماً عنها، وصار لازماً عليّ أن أواجه أوجاع الحياة وحدي، أن أخلع ثوب الطفولة عني وأقاومها كرجل كما ينبغي عليّ أن أفعل، أن أباغت الحياة بدلاً من أن أدافع عن نفسي أمامها، أن أتوقف عن تشريح وجعي، وتحليل آلامي، وأقبل على الحياة بقلبٍ جسور، أن أثبت قدرتي على احتمال الألم والصبر على رحلة الاغتراب.

أتأمل في ميزان الربح والخسارة، أُفكر فيما قد أخسره من الحياة وما قد أربحه منها ومعها، أشعر أحياناً وكأن الحياة تختبرني، وكأنها تنتظر مني إثبات استحقاقي لها، وكأنها تنتظر مني أن أُجازف وأن أبرهن على مرونتي أمام الموت وأمام الحياة.

الغريب أنني ورُغم اندفاعتي، أكاد لا أبارح منطقة الراحة، المنطقة التي اعتدت أن لا أخرج منها، وأن أظل حبيسها لأبقى آمناً مهما فاتني خارجها.

أشعر أحياناً بالرغبة بالانعتاق منها، والمُغادرة من عنق الزجاجة إلى العالم الآخر الذي حجبه عني التوحد، والخوف من المجهول الذي ربتني عليه أمي حباً بي وحرصاً عليّ.

أُفكر دائماً كيف كانت لتكون أمي لولا لم أكُن أنا ابنها؟، وأفكر أحياناً ماذا كُنت لأكون لو لم تكن هي أمي؟!

أُفكر أحياناً، كيف كنت لأكون لو كُنت ابناً لامرأة أخرى؟!، امرأة جاهلة ربما!، أو ربما امرأة مطمئنة لا تثق بما يفرضه العلم وبما يقوله الأطباء!، ماذا لو كُنت لأم لا تميز أصلاً اختلافي!، هل كُنت لأكبر طبيعياً أكثر؟، منفتحاً أكثر؟، مُختلفاً أكثر مما أنا عليه؟

هل كُنت لأتخلص من هذا القلق النابض في صدري؟!، وتلك الغصة التي لا تفارقني؟

أُفكر دائماً فيما تُشكله الوحدة، وكيف أقدر على شرحها، ووصفها لمن لا يفهمونها حقاً.

يُخيل إليّ أحياناً بأن الناس يتخيلون الوحدة، يصفون وحدة أُخرى تختلف تماماً عن الوحدة التي أعيشها وأعرفها... ما يظن الناس بأنهم يعيشونه ليس إلا طيف وحدة، خيال وحدة، لا يشبه الوحدة التي أعيشها إلا كظلال أو كطيف.

الوحدة ليست في عدم قدرة الإنسان على أن يتواصل مع البشر ومع الحياة، الوحدة هي أن تشعر وكأنك غير مرئي، مُتفرج على الحياة ولا قدرة لك على المشاركة فيها أو التغيير بها، أن تشعر بأن الناس لا يرونك فعلاً كما أنت، وبأن غيابك أهون عليهم من حضورك ووجودك بينهم ومعهم.

أعرف بأن غيابي سيُسهل الحياة على والدي وعلى إخوتي، أعرف بأنني لو استطعت أن أنسل من هذا العالم لأصبحت حياة عائلتي أكثر راحة، ليس بالضرورة أكثر سعادة لكنها قطعاً أكثر راحة.

لم يكُن بيدي أن أختار هذه الحياة، ولا قدرة لي على أن أختار الموت، لا لخوفي منه بل لأنني غير قادر على أن أُدير ظهري لكُلِ ما فعلته أمي لأجلي.

أشعر أحياناً بأنني مدين لها بالنجاح والطمأنينة والمحاولة الدائمة بالعيش بسعادة، أنا مُدين لها بكُل هذا ولم استطع أن أحقق شيئاً منه باستثناء النجاح ربما، والذي لم يُسعدني على أي حال.

أشعر وكأنني أسعى للفرح لا لأجلي بل لأجلها هي التي لم تسعَ لشيء كسعيها لإسعادي، أمي التي كانت تتأبطني في كل مكان، تحملني كتعويذة، تراهن علي بثقة ضريرة رُغم بصيرتها ومعرفتها وإدراكها لنقاط ضعفي وفداحة عيوبي.

كيف توقعت أن تصبح لي رجنة أماً؟، أن تحبني بهذا القدر وأن تؤمن بي هذا الإيمان الكفيف الواثق وغير المُقيد، وغير المشروط لا بقيد ولا بشرط؟

تُغضبني هذه الذاكرة المُحتقنة بالوجع والملتهبة بالنبذ، تمر أمامي ذكريات حياتي بتفاصيل دقيقة للألم والوحدة، من دون أن تتغافلني تفاصيل أو تتجاهلني لحظة، فتجلد الذكرى قلبي وتُحرق نياطه.

يدوي هزيم الذكريات في أذني ويجلجل في أوردتي كما كان يفعل في طفولتي، تسحلني الذكرى لذلك الفزع الذي كان يبثه صوت الرعد بي، فينكمش الرجُل في داخلي وينكص، فيعود ذلك الطفل الذي يرهبه ذلك الرجيف وتفزعه تلك الصلصلة.

تذكرت ألبرتو مانغويل وفكرته في أننا «لا نختار ما نتذكره»، أنا فعلاً ضعيف أمام ذاكرتي النزقة، تمنيتُ لو تتخشب ذاكرتي ولا أذكر شيئاً مما كان، أن أبدأ من حيث اليوم، وأن يتلاشى الأمس بكل ما فيه من ذكريات، أن تتقلص مساحات الذاكرة وأن لا تُعاد الذكرى لأكثر من مرة واحدة طوال الحياة.

يقول جبران إنّ «النسيان شكل من أشكال الحُرية»، وأنا أحتاج فعلاً لأن تُحررني الذاكرة، أن تعتقني وتطلقني مع رياح النسيان، لتأخذني حيث تشاء بدونِ وجع الذكريات ولا قيودها.

لا أعرف إن كانت تستحق الحياة أن أُستنزف حتى في ذكرياتي، أتستحق مني فعلاً كُل هذا النضال، أتستحق الحياة منا كل هذا الاستبسال وهذا القتال؟ أخشى كثيراً أنها لا تستحق شيئاً من كُل هذا، وأن الاستسلام كان ليكون فعلاً هو أسهل الحلول وأبسطها وأكثرها شجاعة.

أقاوم الحياة كثيراً ولا أعرف فعلاً إلى متى سأقاوم، متى سيمضي هذا الوقت الذي لا أفهم كيف بدأ ولا كيف ومتى قد ينتهي.

أحاول أن أقفز المسافات، أن أضائل المساحات بين المولد والموت، أن أعيش ما تبقى لي من حياة بأقلِ قدرٍ من الألم ومن الخسارة، أن ألامس جدران المضمون وأبتعد تماماً عن أرصفة المجازفات التي أُدرك بأنها تأخذ أمثالي إلى حيث لا يقدرون على العيش فيها.

مُملة وطويلة هذه الحياة حينما ننتظر منها أن تنتهي، وأنا مُتعب وفارغ بفعل الحياة لدرجة أن البقاء حياً بات يؤلمني، تؤلمني كل لحظة أتنفس الحياة فيها، كل نفس ينفخ رئتي يؤلمني، كُل شهيق مؤلم وكل زفرة مُنهكة!، يؤلمني أنني لا أعرف لماذا أعيش ولمن أعيش وكيف سأعيش وإلى متى سأعيش! يؤلمني العيش كسراب إنسان وبنصفِ حكاية.

قد يظن البعض أن كُل ما في الأمر هو أنني مكتئب، فعلاً، أنا مكتئب، غارق في كآبة الاختلاف وعالق خارج حدود العالم، لا حل للأمر ولا فائدة، فلِمَ تثقل أمي عليّ برفعها سقف التوقعات؟

أحتاجُ أحياناً لأن تتوقف أمي، فقط لأن تتوقف! أحتاجُ لأن تستسلم لتسهل الأمور عليّ، أحتاج لأن تتنفس التسليم وترضى بالخسارة، أن تتوقف عن دفعي إلى الإمام قسراً وأن تتركني أنهار وأُمارس يأسي جهراً من دون أن تمزقني نياط الضمير.

أحتاج لأن تتوقف عن محاولة مساعدتي في وصل ما بين النقط، أن تتوقف عن محاولة تقليص المسافات بيني وبين الناس، أن تترك التيار يجرفني إلى حيث قد أنتهي، أن تقبل بخسارتي وتساعدني على أن أقبل بها.

أحتاج لأن أتصالح مع الفشل، أن أقبل انهياراتي وخساراتي وخيباتي، أن أعيش بعدم اكتراث وببلادة، أن أتوقف عن التشبه بالطبيعيين، وأن أبصق على وجه الحياة مبادلاً إياها الإهانة من دون أن أخشى خذلان أمي في أن تراني قليل التهذيب مع الحياة!

أمي لا تريد الانتهاء مني، لا يمكنها أن تراني أنتهي ككل الأمهات، تريدني حكاية أبدية، لا تُقطع ولا تنتهي، لكنني مُتعب من مقاومةِ الحياة ومجابهتها، أحتاجُ إلى حياةٍ أُخرى تحتضنني، حياة تعرفني ويفهمني من فيها، لا أبدو غريباً فيها ولا شاذاً عنها، ولا رقماً في خانة الأصفار.

لا أعرف ما الذي خلفه بي فشلي مع رجنة، ما هشمته في داخلي تلك العلاقة، لكنني أعرف بأنها أعطبت مشاعري المعطوبة أصلاً، شوهت رغبتي ونظرتي بأي وإلى أي علاقة قد أخوضها، لا أعرف إن كُنت قادراً أصلاً على خوضِ علاقة من بعدها!، أنا الرجل الصعب عليه تخطي الآخرين، الرجل السهل تجاوزه.

يقول لي أخي راكان، الخبير في الحُب على النقيض مني، إننا نظن في نهايةِ كلِ علاقة فاشلة بأنها ستكون علاقتنا الأخيرة، وبأننا نعتقد بأننا غير قادرين على الحُب مجدداً، وإن أبواب قلوبنا ستوصد إلى الأبد، لكنها ليست إلا أعراض النهايات التي لا نتجاوزها إلا بالوقوع في حبٍ آخر جديد.

أشعر بأنني فقدت التوق إلى الحب، لم أعد أحلم بالحُب مثلما كُنت أفعل، رُغم تفاهة الحُب الذي عشته معها إلا أنه كان كافياً بالنسبة إليّ، كان مُقنعاً وكافياً لرجلٍ هش المشاعر مثلي، رجل تدغدغ أحاسيسه الأشياء الصغيرة وتبعثر روحه أسخف الكلمات.

أُدرك بأنني متطرف المشاعر رغم حياديتي في كُل الأشياء، في المشاعر أنجرف بمشاعري حتى آخرها، إما أن أُحب إلى أقصى حد وإما أن أكره إلى أبعد درجة، أظن بأن هذه إحدى سماتي اللاسوية، أسعى دائماً للوصول إلى منطقة الوسط ومماسة الاعتدال في المشاعر بلا فائدة ولا نتيجة.

أحاول خلع عباءة المأسوية، وإزالة تلك الوصمة الدراماتيكية وأن أُسدد وأُقارب، أمد وأجزر، أغوص وأحلق من دون خوف، أن أتحدث من دون أن أشعر بعقمِ كلماتي ولا بضحالة محاولاتي في إيصال معنى.

يخبرني راكان بأن هذا هو الحُب باختصار!، هذه هي لذة الحُب، أن تشتاق وأن تتألم وأن تُعاني، أن تُجرح وتتمزق وتعاود الكرة، لتُجرح وتتمزق مرة أُخرى وتعاود الكرة من جديد!، هذا هو معنى الحُب، أن تشعر بإنسانيتك من خلالِ مشاعر الفقد واللهفة والحرمان حتى يذوي قلبك وينطفئ، ويشتعل مرة أخرى ويكبر مُجدداً بُحب جديد.

تقول لي أمي بأنني سأكتشف يوماً بأنه لطالما كان الحزن رفاهية، تطلب مني أن أستمتع بالحُزن لأنني سأفقد رفاهية الحزن حالما أصبح أباً يوماً ما، حيث لن أقدر على أن أحزن كما ينبغي علي أن أحزن، وبأنني سأضطر يوماً لأن أتجاوز الألم، وأن أبقى متفائلاً، مُتأملاً، سعيداً أو

«متساعداً» من أجل أبنائي ولأجلهم، سأفقد اللحظات التي كُنت أقدر فيها على أن أكتئب بحرية، وعلى الزمن الذي كُنت أنام فيه لأيام من شدة الكآبة وفرط الحزن، بأنني سأخسر الشعور بالحزن على أسخف الأشياء وبأنني لن أحزن إلا على الأمور العظيمة لأن الحُزن على غيرها سيكون مُستنزفاً للطاقة التي أحتاج إلى كل ذرة فيها لأعتني بتلك الأرواح التي تسببت بمجيئها إلى هذا العالم.

تقول بأنني سأشتاق كثيراً لأن أحزن بلا سبب، ولأن أمارس الحُزن وأنفس عنه، لا لأن أوأده من أجل أبناء أدين لهم بأن لا أنشغل بالحُزنِ عنهم!

تقول بأنه سيأتي يوم لن يسمح لي فيه بمُجاهرة الألم ، ولا الوجع والكآبة، بأنه سيكون من الواجب عليّ أن أكون قوياً كفهد، صلباً كسنديانة، وأن يكون قلبي كقلب أسد للحفاظ على أبنائي وعلى مواجهة الحياة بروحِ نسر جسور.

لستُ أدري إن كُنت قادراً على مواجهة الحياة كأب، عشت طوال حياتي فيها مناضلاً لأجلي ولا أعرف إن كُنت قوياً بما يكفي لأن أقاومها لأجل أبناء قد أرزق بهم يوماً.

ثقيل قلبي بثقل انكساراتي، فكيف سيقوى على أن أتشظى أمام أطفالي بلا حيلة مني ولا حيلة منهم.

كيف سأقبل أن أُجلب للحياة إنساناً آخر لتُمارس عليه تنمرها؟، لتضطهده، وتجزئه، وتتلاعب به وتعبث به من دون أي اعتبار لما يبذله للعيش بسلامٍ فيها؟

من الغريب أن أفكر فيما لو أصبحت أباً يوماً، من الغريب أن أقاوم هذه الفكرة بهذا الألم وأن أستبعدها مضطراً كيلا يعاني طفلي بعضاً أو شيئاً مما عانيت.

يتزوج الأشخاص في مجتمعاتنا لينجبوا لا لحبهم للأطفال ولا لرغبتهم بجعل هذا العالم أفضل بتربيتهم لأبناء منتجين وصالحين وسعداء، بل لأنهم يظنون بأن الكمال لن يتحقق لهم إلا إن أصبحوا آباء أو أصبحن أمهات.

ضخمت موروثات الجهل هذه الأوهام في لاوعينا وجعلت الإنجاب هو الكمال، التمنع عنه أو عدم الرغبة وأحياناً عدم القدرة عليه هو شذوذ، نقصان لا يكمله شيء ولا يزيده شيء.

لذا يسعون للإنجاب، ليكتملوا وليكملوا النقص الكامن في أعماقهم، من دون أن يكترثوا لإرث الأحزان والهموم التي قد يورثونها لأبنائهم ولا لجودة الحياة التي قد يعيشونها.

يظنون دائماً بأن حيوات أبنائهم ستكون أفضل، بأن بانتظارهم مستقبل أكثر سعادة، من دون يقين ولا ضمانات ولا تعهدات، كل ما يتعلقون به هو ظن وأمل، سبقهم فيه آبائهم وسيقلدهم به أبناؤهم.

لا أجرؤ على أن أظن هذا، ولا أجرؤ على أن أُجازف بحيوات أُخرى لا أملك لها أية ضمانات.

لطالما كان خيالي أكثر سعادةً وفرحاً من الواقع، لكن خيالي لم يقدر على أن تبنّي هذه الفكرة المُتطرفة التفاؤل، خيالي من جعل وحدتي أخف وطأة، كان صديق طفولتي، رفيق مراهقتي، وخليل شبابي، منحني الخيال مشاعر لم أعشها، وأماكن لم أزرها وأصدقاء لم أعرفهم ولحظات لم أمر بها.

وهبني الخيال الحُب والصداقة وأوقاتاً من فرح خام، لم يجدْ عليّ الواقع بها قطّ.

الخيال هو الذي جعلني أكتب، وهو الذي وهبني العيش في مساحات بعيدة، لا يحصرها أحد ولا تحدها حدود، الخيال هو من سرب الناس إلي ومن سربني إلى الناس، فبات العالم يعرفني وبات باستطاعتي - ادعاء - معرفة العالم.

الخيال هو من انتشلني من دناءة الوحشة، وضحالة التمييز، هو من ساواني بالأسوياء، ومن حررني من عبودية الوحدة.

لطالما كانت أقسى أوقاتي هي في العودة إلى الواقع، لطالما كان الخيال أكثر لطفاً وأشد حناناً عليّ، لذا كُنت أجر قدمي قسراً إلى الواقع الذي لم يحبني يوماً ولم أحبه قطّ، إلى الواقع الذي لم يقبلني ولم أستطع قبول اعتراضه عليّ وتهميشه لي.

كُنت أعود إليه لأثبت للآخرين بأنني ككل البالغين من الأسوياء، بأنني تجاوزت الطفولة التي لم تكُن كطفولة الأطفال رُغم خيالي الواسع الجامح.

لو كان الأمر بيدي لبقيتُ مُعلقاً في النصف المُمتلئ من كأس الحياة، لتُمازجتُ بالخيال، لنبذت الواقع وغادرت النصف الفارغ منه، لكن الأمر ليس بيدي، أنا رجُل الآن، من المفترض أن

أُقارب المنطق، وأمُارس الواقع، وأن أتحيز لهويتي وذوقي وميولي وهواياتي، مثلي كمثل كل البالغين.

الحقيقة أنني اكتشفتُ حينما أحببت رجنة بأنه لم يكُن لدي أي ذوق سابق في النساء!، لم أُكن أفضل ملامح على أُخرى، ولا جسداً على آخر، كانت النساء يتشابهن في كُل شيء بالنسبة إليّ، ملامحهن، أجسادهن، طريقة تبرجهن واختيارهن للملابس.

لم أكُن دقيقاً في ملاحظة الاختلافات بينهن، ربما لفرط خجلي، وربما لأن علاقتي بالنساء من حولي كانت علاقة شبه مقطوعة، فلا أخوات ولا زميلات لي ولا تربطني أي علاقة بسيدات، وطبيعتي المنطوية لم تساعدني على التقارب مع بنات العائلة، علاقتي بعماتي وخالاتي كانت أبسط بكثيرٍ من علاقة أخويّ بهن، لذا كان التعامل مع الإناث يشكل عبئاً ثقيلاً عليّ ويتطلب مني مجهوداً ضخماً ومضاعفاً للتواصل.

عندما أحببت رجنة، خُلق لي معها ذوق خاص، تشكل لي ذوق في المرأة يختزل طبعها، ملامحها، طبيعتها، صوتها وتفاصيلها الصغيرة، كُنت أراها في كُل النساء وأرى كُل النساء فيها.

كانت لرجنة أفكارها المُختلفة والخاصة، كانت جريئة، ثائرة، مُتمردة، لا حدود لها ولا مخاوف، لم تكن تشبه الناس، لا يعنيها المُجتمع ولا يهمها العُرف، لم تكُن تكترث لا للعادات ولا للنظام ولا للسائد.

كان من السهل عليها أن تُقنعني بالكثيرِ من أفكارها، أنا الرجل الأبيض تماماً، بلا تجارب ولا شوائب، جاءتني بتجاربها الكثيرة، العميقة والمُختلفة وجعلتني أتبنى كثيراً من الأفكار التي لم تكُن تشبهني يوماً.

يتبنى الرجل أفكار المرأة الأقوى منه والمُسيطرة عاطفياً في العلاقة، خصوصاً إن كانت هذه المرأة امرأته الأولى، وكانت تلك العلاقة علاقته البِكر.

أخبرتني أمي بعد انفصالي عن رجنة أنه كان من الواضح منذ اليوم الأول أن علاقتنا لم تكُن لتفضي إلى منطقة مُشتركة أو مُستقبل يجمعنا، سألتها لِمَ لم تُحذرني إذاً من هذه العلاقة ولم تُنبهني إلى هذا؟!

أجابتني: في الحُب لا صوت يعلو على صوتِ شركائنا في الحُب يا ثنيان، لم تَكُن لترى ما أراه أو ما يراه كل العالم.

لكنكِ تعرفين أنني أصدقك دائماً وأثق برأيكِ!

لكنك كنت ستخوض التجربة متأملاً أن تنجح، كُنت ستحاول وتسعى وتتجاهل كل المؤشرات وكل المعطيات، هذا ما يفعله بنا الحُب يا ثنيان!

ليتني لم أخض كل هذه التجربة، ليتها لم تمر في حياتي.

على العكس، لقد كُنت بحاجة إلى هذا الحُب وهذا الفراق وهذا الألم، صدقني لا يوجد أم تتمنى أن ترى ابنها أو ابنتها يمر أو تمر في حالة فشل خصوصاً في الحُب، لكن هذه التجارب ما تجعلك أقوى وأعمق وأكثر نضجاً وأشد حكمة، هذه التجارب الفاشلة ستجعلك دقيقاً في اختياراتك كما ستجعلك تُميز الشخص الأنسب ذات يوم.

لا أظن أنني سأُحب مرة أُخرى.

كُل انسان قال هذا الكلام بعد فشل أول علاقة حُب وكلهم أحبوا من جديد وأعادوا الكرة، لا تقلق ستتذكر هذا الكلام بعد سنوات وستضحك على هذه الفكرة.

رغم أنني أعرف اليوم بأن ذاك الشيء الذي عشته مع رجنة لم يكُن حُباً خالصاً بقدرِ ما كان تعلقاً بفِكرة الحُب التي كُنت أحتاج لأن أعيشها بأي صورة وبأي طريقة ومع أي امرأة، وأن توقي ورغبتي بتجربة الحُب هما اللذان دفعاني للتعلق برجنة وبتلك العلاقة، إلا أن الألم الذي أصابني عندما فقدتها كان عظيماً وغير مسبوقٍ.

أفكر فيما لو كان ما بيننا حُب حقيق وطويل، كم كان سيُكلفني ذلك الفراق!، وكيف كُنت لأتعايش مع ألمٍ يفوق الألم الذي عشته حينما فارقتني!

أعرف بأنه كانت لي أسبابي الكثيرة والمنطقية للتعلق بها، لكنني أتساءل دائماً عما كانت أسبابها!، هي التي لم تكُن تحتاج إلى غرٍّ يصغرها في العُمر، عديم التجربة، محتد المشاعر ومأزوم الأفكار!

لا أظن بأن امرأة مثلها عرفتني وقاربتني لتُكمل ما تبقى من حياتها معي، رُغم أنني صدقت ذلك وقتذاك وآمنت بهذا النوع من الحُب/المُعجزة، الذي يُقارب بين النقيضين حتى يندمجا بفعل الحُب فيغدوان واحداً ويعيشان ما تبقى لهما من عُمر في سبات ونبات رُغم التفاوت والتباين.

لا أعتقد أنني سأعرف يوماً أسباب رجنة، لن أفهم يوماً ما أغراها بخلقِ علاقة لا تشبه العلاقة معي!

يهيئ إليّ أحياناً بأن هذا هو السبب، أنها وجدت رجُلاً لا يُشبه الرجال، هي التي لا تُحب المُتشابهين، ولا تحترم السائد، فبحثت من خلالي عن حكاية تكتبها، حكاية تُغذي بها رواياتها، أو قصة تعيشها لتضيفها إلى سلسلة القصص الغريبة التي عاشتها!

لم تأخذني رجنة على محمل الجد قطّ، لم تحترم إنسانيتي ولا رجولتي ولا حتى عُذرية مشاعري التي بدت لها جلية وواضحة، كانت تعرف بقلبِ خبير أنني أبسط من أن أؤذيها، أضعف من أن أنتقم منها أو أن أرد لها الإهانة كما يفعل الرجال دوماً حينما تجرؤ النساء على التلاعب بهم!

لذا تمادت في العبث بي، تلاعبت بي باطمئنان وبيقين من أنها ستنتهي مني تماماً حالما تقرر أن تنتهي مني!

حينما قررت رجنة الانتهاء مني، أو ربما حينما خطر لها أن تعيش حكاية جديدة مع غيري، لم تُعد ترد على مكالماتي ولا على رسائلي!

ببساطة!، حظرتني من كل وسائل التواصل التي كانت بيننا، ولم تُعد تجيب على مكالماتي ولا على رسائلي الملحّة والمستمرة والخائفة.

استخدمت حسابات أخويّ للاطلاع على حساباتها في مواقع التواصل لأتفاجأ بها حية ترزق، بخير ونشاط ومرح لا يُخفى!

كان اختفائها بهذه الصورة وهذه السهولة وهذه السرعة صادماً!، لم أفهم لماذا قطعت عليّ كل وسائل والتواصل معها فجأة!

وبعقلية الطفل المُدان دائماً بالذنب في طفولته، شعرتُ تلقائياً بأنني من أخطأ ومن أذنب في حقها، وبأنني بلا شك أستحق هذه القطيعة وهذا الغياب!

تلبسني الذنب بلا ذنب كالعادة!، مزقني تأنيب الضمير رغم أنني لم أعرف ما اقترفته من دون علم مني.

حاولت أن أتواصل معها في كُل مكان وبأي طريقة، حاولت أن أعتذر منها، أن أرضيها، أن أسترجعها!، رجوتها أن تسامحني وأن تمنحني فرصة أخيرة لأصحح الخطأ الذي ارتكبته!

ملّت إلحاحي فيما يبدو!، أرسلت إلي رسالة مُقتضبة، باردة كمكعب ثلج، ذكرت فيها أنها اكتشفت أننا لا نُناسب بعضنا بعضاً، وبأنها لا تريد أن تظلمني، لأنني أصغرها بكثير وبأنني أستحق من هو أفضل منها!

لم تُكن رجنة بحاجة إلى الكثير من الدهاء لتُدرك كم من السهل أن يشعرني أحد بفضله عليّ، حتى لو كان الفضل هو هجره لي ورحيله عني، قررت أن تلبسني هذا المعروف وأن توهمني بأنها فضلت مصلحتي على مصلحتها فرحلت من أجلي!

ولأنني رجُل مثخن بالذنب ومُتلبس بالتصديق، صدقتها وبقيت ألاحقها لأسابيع طويلة محاولاً أن أنفض ذنب فارق العُمر بيني وبينها، حتى بدت لي مختلفة، سعيدة في حساباتها، مُحلقة ومنتشية بحُبٍ لم تكابد عناء إخفائه أو التحفظ عليه، هي التي تتباهى بالبدايات الجديدة وبالنهايات القاطعة، بالعابرين وبالمُنتهى منهم.

كان رحيلها عني بهذه الصورة قاسياً، لا أعرف حجم الإهانة التي يشعر بها الناس ولا أفهم كيف يكون وقعها في النفس مهما قرأت عنها ومهما حاولت تخيلها أو استشعارها، إلا أنني أعرف الآن أن ما فعلته تجاهي كان مُهيناً لي كرجُل وكإنسان، لم يكُن تركها لي هو المُهين بقدرِ ما جاء تعليقها لأسباب هجرها لي عليّ!، هي التي تركتني فجأة لأنها اكتشفت أن فارق العمر بيننا لا يُناسبها وكأنها لم تكُن تدري منذ البداية، شيئاً عن هذا الفارق!

أول ما فكرت به بعدما تحققت أن رجنة لن تُعد إلى حياتي ولن تكون يوماً فيها، هو أن أترك عملي الرسمي وأن أتفرغ للكتابة.

شعرتُ أن الوقت قد حان لأبدأ من جديد حياة أُحبها، حياة لا تُرضي الآخرين بل ترضيني، أنا الذي تمسكت بعملي طوال العام الماضي فقط لأشغل وظيفة مُناسبة تهيئني للزواج من رجنة.

أعرف أنني خذلت أبي عندما قررت أن أترك عملي كمُبرمج وأن أتفرغ للكتابة، كان هذا القرار بالنسبة إليه محض جنون؛ فالكتابة ومهما علا شأني بها برأيه ليست إلا مُجرد هواية أُمارسها في أوقات فراغي،كان قراراً صادماً بالنسبة إليه، لكنه لم يُطِل التصادم معي بسبب هذا القرار.

أعرف أنني لم أُكن لأدخل مع أبي في هذا الصدام لولا مؤازرة أمي ودعمها لقراري؛ طبيعتي ليست ميالة للتصادم، غالباً ما أكون انسحابياً عندما تحتدم المواجهات أو حينما يلتبس عليّ فهم الأشياء. أذكر اليوم الذي أخبرتها بنيتي في الاستقالة، لم يكُن قد مضى على التحاقي بالشركة أكثر من عام، كان نهاراً شتوياً شهياً من شتاءات الرياض، وكنا في طريقنا إلى أحد متاجر اللحوم لابتياع بعض الحاجيات لإقامة ليلة شواء مساءً، الطقس الذي تُحب أن تمارسه أمي في الشتاء عادة.

كان المُحل مُغلقاً لأداء الصلاة، وكانت أمي مشغولة برسائل هاتفها، التفت إليها وقلت لها بشكلٍ مُباشر ومن دون أن أُفكر بما أنني الرجل الذي لا يُفهم كيف تصاغ المُقدمات، الرجل الذي تساوت لديه موازين الربح والخسارة.

سأستقيل من الشركة!

ماذا تقصد بستستقيل؟

سأترك العمل فيها.

إلى أين ستنتقل؟

لن أنتقل إلى جهة، سأتفرغ للكتابة.

ولماذا لا تستمر في عملك والكتابة كما تفعل الآن؟

يستنزف العمل طاقتي في الحديث وفي الأفكار، أشعر أن طاقتي تُهدر كل يوم في غيرِ مكانها.

لو فرضنا أنك استقلت للتفرغ للكتابة، إلى متى ستظل هكذا؟

مبدئياً إلى الأبد!

ضحكت: مبدئياً إلى الأبد!، وكيف ستعيش بلا دخل، هل تتوقع أن تأخذ المصروف مني ومن أبيك؟

أظن أن دخل الكتابة سيكفيني لأعيش مرتاحاً.

يكفيك لتعيش مرتاحاً لأنك ما زلت تعيش في بيتنا، غداً ستتزوج وستصبح أباً ولن يكفيك هذا الدخل غير المُستقر.

أمي، لا تستبقي الأحداث، حينذاك قد أعود إلى البرمجة!

ألا تُحب البرمجة؟

لِمَ أحبها يوماً.

لِمَ درستها إذاً؟

لأن والدي كان يُريدني أن أُصبح بيل قيتس وأردتني أنتِ أن أكون زها حديد، وكان الأسهل علي أن أكون بيل قيتس.

لم يرغمك أحد منا على ذلك يا ثنيان!

لم ترغماني لكنكما أوحيتُما لي بذلك فاخترت أن أرضيكما.

وكيف تتصور هذه الحياة البوهيمية؟، بلا روتين ولا نظام ولا استقرار مادي!

سأُجرب هذا الوضع لعام، أعدكِ أن أعود لأبحث عن عمل بعد عام إن لم أجد نفسي في هذه الحياة التي اخترتها.

ليس من الصائب أن تتخذ أية قرارات مصيرية في هذا الوقت يا ثنيان، أنت مُحبط لخروجك من علاقة كنت تعول عليها كثيراً، لا تستعجل في اتخاذ القرارات لمُجرد أنك مُحبط وحزين!

ليس للأمر علاقة بإحباطي ولا بحزني، كُنت أفكر بالأمر منذ وقت طويل وأرى أنه الوقت المناسب لأقدم عليه.

أرى أنك تحتاج لأن تشغل وقتك الآن أكثر بكثير مما كنت تحتاج في السابق، العمل سيجعلك تجتاز هذه الأزمة.

الكتابة ما ستجعلني أجتازها، أحتاج إلى الكتابة أكثر بكثير مما أحتاج إلى العمل.

حسناً!

على فكرة!، ألا تعتبرين الكتابة مهنة وعملاً؟

بلى لكنها مهنة مزاجية وغير مستقرة ، شاب في بداية حياته يحتاج لأن يؤمن مستقبله بوظيفة وعمل أساسي ومستقر، هل تظن أنك ستكون سعيداً، وأن هذا النمط من الحياة يُناسب شاباً في عُمرك؟

أنا على يقين من أنني سأكون أكثر سعادة مما أنا عليه الآن.

لا بأس إذاً، سنرى كيف تكون أوضاعك بعد عام من الآن!

ماذا عن أبي؟ أتقنعينه في الأمر من أجلي؟

لا شأن لي بما يخصكما أنت وأبوك يا ثنيان، تحدث معه واقنعه مثلما أقنعتني.

عندما جلست مع والدي لأحدثه في قراري بعدها بأيام، عرفت أن أمي قد أخبرته وقد أقنعته قبل أن أفاتحه بالأمر وإن لم يُقر بهذا!

لطالما كان هذا ديدن والدتي، لطالما فعلت ذلك معنا، دائماً ما كانت تطلب منا أن نتحدث مع والدي في الأمور التي تخصنا أو فيما نريده منه ونحتاجه، ونكتشف بطريقة أو بأخرى أنها سبق وأن تحدثت معه في الأمر وأقنعته به.

تُفاتحه بأمورنا كي تمهد لنا الطريق، وتتحمل الجزء الأكبر من عبء الإقناع، وتوهمنا أننا نملك من الحِجة ما يكفي لأن نكون مُحاورين مُقنعين.

قاوم والدي قراري في ترك العمل، حتى بعد إقناع أمي وحصولها على موافقته قبل أن أُفاتحه بالأمر، كان مُتمسكاً بالفكرة القديمة تلك، في أن الاستقرار الوظيفي أهم من أي حُرية وأي

طموح.

لم يُحب والدي خوض المُجازفات، أراد لي حياة مُستقرة بأكبرِ قدرٍ من الضمانات، ربما لأنه كان يعرف أن مقاييس الربح والخسارة بالنسبة إليّ في غاية الدقة، وبأنني قد لا أحتمل الشعور بالرفض لو سعيت إلى العودة ووجدت الأبواب مُغلقة، أو ربما لأن بداخلي من الفوضى ما لا يحتمل الكثير منها بعد تركي العمل وعدم الالتزام بروتين يومي ونظام حياة.

حاول إقناعي بالعدولِ عن الفكرة، لكنني كُنت مختنقاً بالوظيفة، متورطاً بما لا أُحب ولا استمتع القيام به.

شعرتُ بأن الوقت قد حان لأكون نفسي، سيد نفسي، حُر نفسي وملك نفسي، بأبسط حياة وأقل مادة، من دون أن أكترث لرضا المسؤول، وإقناع الآخر وتقبّله ونفاقه.

عندما تركت العمل، شعرت أنني تحررت جزئياً!، شيءٌ مني قد تحرر!، للمرة الأولى في حياتي لم أعد أحتاج إلى بذل جهد في التواصل مع الآخرين، رُغم أن عملي في البرمجة لم يكُن يجبرني على التعاطي كثيراً مع الناس، كان معظم عملي على الأجهزة ومع الأجهزة، قد لا يتصور البعض أن التعامل مع الأرقام والشفرات والحواسب يتطلب جهداً أقل بكثير مما يتطلبه التعامل والتعاطي مع الناس، إلا أنني كُنت مضطراً لمحاولة خلق علاقات مع زملاء العمل الذين لم يفهموا طبيعتي يوماً والذين لن أقدر على أن أفهم طبيعتهم أبداً.

كان التحرر من الوظيفة الرسمية في غاية البساطة، أسهل بكثيرٍ مما توقعت ومما توقع والديّ، كان التفرغ للكتابة وللقراءة بطبيعة الحال لذيذاً، شهياً، كان ملائماً لي منذ اليوم الأول، ومنحني سلاماً لم أشعر به منذ أول يوم دلفت فيه إلى أروقة المدرسة قبل عشرين عاماً.

كل ما حلمت به وما أردته، هو أن أقرأ في حياتي أكبر قدر ممكن من الكتب العظيمة، وأن أكتب أكثر عدد ممكن من الكتب الجيدة، أن أجوب العالم كله، وأن أُحِب وأُحَب، ببساطة!، فقط!

كانت أحلامي بسيطة، غير مُكلفة ولا مُعقدة، وكانت استقالتي هي الخطوة الأولى لتحقيقها.

لم أشعر بالخوف لتركي عملي ولا في أن أُصبح عاطلاً، مخاوفي دائماً ما كانت تتعلق باللحظة الآنية، لم أخشَ يوماً الغد ولا المستقبل البعيد. كل ما كُنت أخشاه في حياتي كان يتعلق

باللحظة وبالآن، ورُغم ذلك لا أظن أن خوفي يشبه خوف الآخرين أو يماثله، خوف الآخرين لئيم بطيء وجاثم، بينما خوفي قصير وسريع، يمخر قلبي بقوة وسرعان ما يتلاشى ويختفي.

شعرتُ أنني قد بدأت حياة جديدة بالتفرغ للكتابة، لم أكُن أحتاج بعدها إلا أن يطرق الحُب بابي، أو أن أطرق أنا باب الحُب، لم يكُن يهم من يكون منا الطارق، المهم هو أن يُفتح الباب وأن نلتقي!

انشغلت بالكتابة وأبقيت الباب مواربًا للحُب، أسترق النظر إليه بين الحين والآخر، لم يطلّ عليّ من خلفه أحد، ولم يطرقه طارق!

* * * * * *

سألني مساعد ذات يوم، «لِمَ لا تكتب عن التوحد!»، وبرُغم أننا لم نتناقش يومًا في كوني قريبًا أو بعيدًا عن التوحد، ورغم أنه لم يصفني أحد منهم به، ولم يسألني أحد منهم عنه، جاء سؤاله مفاجئًا، عامًا وعائمًا، وبدون أن يتطرق إلى علاقتي به أو تجربتي معه.

ابتلعت ريقي وكأنه قد مسكني مُتلبسًا بالجرم، أجبته: « هُناك أشياء يصعب عليّ الكتابة عنها!».

لِمَ؟، لما يصعب عليك الكتابة عن التوحد؟

التجارب التي يمر بها الروائي أو الكاتب إما أن تكون كتابتها مثل الوحي الذي يوحى بلا انقطاع وبسهولة، وإما أن تكون حبسة طويلة ومُمتدة لا قدرة له على أن يتجاوزها.

ماذا تعني بالحبسة؟

الحبسة حالة يمر بها الكتاب، لا يقدر فيها على أن يكتب شيئًا، تتصلب أفكاره وتتخشب كلماته، قد تطول وقد تقصر.

هل جربت أن تكتب عن التوحد وأصابتك الحبسة؟

لا، لكنني أعرف أنني لن أستطيع الكتابة عنه.

كيف تؤكد ذلك وأنت لم تُجرب؟

لأنني أعرف بأن أصعب تجاربنا لا نستطيع الحديث عنها ولا الكتابة.

هل تعلم كم من فتاة تعرفت إليّ لمُجرد معرفتها بأنك أخي؟

كم؟

كُل من عرفت!

لا تبالغ!

لا أُبالغ يا ثنيان، أنت لا تعرف قيمتك فعلاً!، عليك أن تحاول الاستمتاع بنجاحك وشهرتك، أن تشارك القراء بعض يومياتك على وسائل التواصل، أن تتوقف عن كونك شبحاً بالنسبةِ إليهم!

تعرف أنني لا أُحب وسائل التواصل الاجتماعي ولا تمتعني.

لا بأس، سأُديرها لك!

مستحيل.

ألا تثق بشقيقك الصغير؟

لا أحب أن تجتاح الشهرة حياتي الخاصة.

أي حياة خاصة؟، أنت أقرب ما تكون لشبح بالنسبة إلى قرائك يا ثنيان.

الغريب أنني لطالما شعرتُ فعلاً بأنني شبح، وفي الأوقات التي لم أُكن شبحاً فيها بين الناس، تمنيتُ فيها لو كُنت شبحاً لامرئياً، خصوصاً في طفولتي وظروفها المُختلفة.

يقول حنيف قريشي إن (الحياة نفسها لا تعني الشيء الكثير إن كُنت قابعاً في غرفةٍ وحيداً، فالجنة حيث يكون الناس الآخرون)، وأظن أنا بأن العُزلة قد تكون فردوساً للبعض إن كانت تلك العُزلة اختياراً، لكن الجنة لن تكون إلا حيث الناس إن كنت مُسيراً للعُزلة، مُجبراً عليها ومضطراً لها.

أنا لم أختر عُزلتي، ولا أفهم كيف ولماذا قد يختارها بعض الناس!، لكني ورغم ذلك لا أعرف إن كُنت قادراً على أن أعيش غيرها أو أن أختار سواها، قد لا أختار غيرها إن خُيرت الآن في الاستمرار بها أو الانحراف عنها، لأنني لم أعرف غيرها وأجهل كنه وشكل الأشياء خلف أسوارها.

لا أعرف ما قد يحدث لو سقط سور العُزلة وتلاشى الحائط الذي يفصل بيني وبين الآخرين، لطالما كان في ملامحي من الوداعة والبراءة ما لا يخفى وما يستحق التعاطف معي، لكن انعزالي حال بيني وبين هذا التعاطف، فحل مكانه التوجس وخُلقت بسببه المسافات، توجست من الآخرين فلم يقدروا إلا على مبادلتي التوجس والخيفة والحذر.

إنّ من يدلف باب العُزلة سيتيه في متاهاتها غالباً إلى الأبد، سيكون من الصعبِ عليه الخروج منها، فكيف بمن خُلق في رِحمِ الوحدة وفتح عينيه على العُزلة!

أرقب حياة أخويّ دائماً وانشغالهما المستمر بالآخرين، أوقاتهما التي يتخللها الكثير من البشر، وذلك التوق الحاد للوجود بمعية الناس، يبدو لي أحياناً بأن وجودهما مع الناس هو حاجة أكثر بكثيرٍ من كونها رغبة، هي ضرورة أكثر من كونها مُتعة، غريزة وليست بطبع.

تحاول أمي أن تُبسط لي الأمور، تُجيب عن أسئلتي وتساؤلاتي وكأن لديها صندوقاً للإجابات عن كُل الأسئلة!، دائماً ما كُنت أشعر بهذا، كُنت أشعر منذ طفولتي بأن أمي تعرف كل الإجابات، وتطلع على كُل الأمور، وتفهم كل الأسباب، بأن اعتقاداتها حقائق، وبأن أفكارها يقينيات، وبأن لمشاعرها بصيرة لن تخطئ أبداً!

أمي التي دائماً ما كانت تسعى لأن تجمل وجه عزلتي ولتُشعرني دوماً بأنها شكل من أشكال طبيعة الإنسان، كانت تُخبرني دائماً بأن حاجة البشر إلى الآخرين تختلف من إنسان إلى آخر، بأن بعض البشر يحتاجون إلى صحبة الآخرين ليشعروا بالتقدير لذواتهم، بينما لا يشعر مرتفعو تقدير الذات أنهم بحاجة إلى الآخر حتى يستمتعوا بلحظاتهم مع أنفسهم.

سعت أمي طوال سنين حياتي الأولى لإدماجي مع المجتمع الصغير، بالتدريج والترغيب أحياناً، وبالإجبار والإكراه أحياناً أُخرى، لكنها وصلت إلى قناعة التخلي بعد سنوات، قررت أن من الواجب عليها احترام طبيعتي، وتقدير سماتي ما دُمت متصالحاً معها، مطمئناً بها، لذا توقفت عن

مقاومةِ طبيعتي الانطوائية، وعن محاولة تغيير شكل هويتي الاجتماعية، وانقلبت مساعيها لأن تغرس بي الاعتداد بطبيعتي والاعتزاز بهويتي، لتقديرها واحترامها وقبولها، والنظر إليها كهبة وميزة تُميزني عن باقي البشر.

* * * *

مرضت أمي فجأة، اكتشفت أو اكتشفنا بين ليلة وضحاها أنها مريضة منذ مُدة!، هكذا وببساطة.. يكتشف الإنسان بأنه مريض من دون أن يمرض، أنه يموت ويدنو من النهاية من دون أن يتألم أو يعرف وبدون مؤشرات سابقة!

انقلبت حياتنا في يوم واحد، في لحظة واحدة، حينما اكتشفت أمي أنها مصابة بسرطان الثدي عن طريق الصدفة.

مرضت أمي فجأة وماتت أيضاً بسرعة وفجأة!

ماتت بلا مقدمات ولا تمهيد، غابت من دون أن تُعدُني للغياب، رحلت من دون أن تُجهزني للرحيل، حزم الموت روحها واصطحبها إلى غير رجعة.

أطفأت نور العالم ببساطة، وكأنها كبست على مكبس الكهرباء فأظلم العالم وأعتم فجأة!، أفلت وأنا لا أحب الآفلين.

أكثر ما خلفه غياب أمي، هو الشعور بالغضب والظلم، باللاعدالة التي يفجعنا بها الموت، من دون أن يمنح الإنسان فرصة للوداع، للشرح، للتسامح، للتبرير وللتفسير.

كم من حكاية يسرقها الموت من أفواهنا من غير أن يمنحنا الوقت لنحكيها، كم من مشاعر يوأدها الموت في داخلنا فلا نقدر على التعبير عنها، وكم من طفل سرق الموت أمه فضاع في دهاليز الضياع بلا يدٍ تقوده إلى دروب العالم الآمنة.

لطالما حاولت أمي أن تعدني للحياة، قاتلت لأن أكون مستعداً لمواجهة الحياة، ولم تجهزني قطّ للموت، خشيت فيما يبدو أن تعرفني إليه أو حتى أن يعرفني!

كانت تحلم من دون أن تُصرح أن أموت قبلها، برُغم كل ما كُنته لها، كان تتمنى أن أسبقها في الرحيل.

كُنت أُدرك أنها تخاف عليّ من الحياة أكثر من الموت، كانت تخاف أن تتركني وراءها، فتلوكني الحياة ألف مرة، وتسحقني ألف مرة، وتهشمني ألف مرة ومرة.

لم يكُن الموت من خطط أمي، لم ترغب بأن تموت قبلي ولم تخطط لذلك.

لم يُباغت الموت أمي، أنا من باغته الموت بقدرِ ما باغتته الحياة، سلب الموت الحياة مني، ولم يسلبني منها، أخذ أمي مني بلا موعد ولا إنذار أو حتى تلميح، حتى السرطان رغم بشاعته لم يكُن تلميحاً صريحاً للموت!، وهذا قاسٍ، قاس جداً ومجحف جداً!

من الظلم أن يسرق الموت الأمهات والأطفال، من الظلم أن يجتثهم منا فجأة، من الظلم أن يباغتنا الفقد في غمضة عين، وأن يتوقع منا القبول أو اعتياده!

الموت ليس كالحياة، قطعاً لا يتشابهان، فزع الموت لا يشبه نشوة الميلاد، تأتينا الحياة والميلاد دائماً على مهل، بتمهيد وتخطيط وانتظار ومقدمات طويلة، بينما يجيء الموت على حين غرة لينتشل منا أغلى ما نملك، الأحب إلى قلوبنا، أعز ما لدينا، يجتث الحياة منا من دون أن يلتفت إلى الجزع الذي خلفه فينا، ولا إلى صدى الفراغ الذي يصدح بدواخلنا حين الفقد.

لا يأبه الموت للحزن، لا يكترث الفقد للحزانى والجازعين والمفزوعين، يخنق الموت الحياة بشخص، فيعيش كل من يحبه بشبه حياة، على قدمٍ واحدة ونصف فؤاد وروح عليلة.

لا قُدرة لي على وصف فقدان أمي، لا قدرة لأحد على تصور فجيعة الفقد ومصيبة الغياب، لا قدرة لأحدٍ على تصور ما خلفه رحيلها في داخلي من أسئلة، أسئلة أُدرك أن الحياة لن تُجيبني عنها، وبأنها ستتجاهل كل شكوكي وتساؤلاتي وتُقابلني ببرودها اللامبالي وصمتها الحاد اللامُكترث.

لم أكُن أعرف بأن كُل الأصوات ستختفي باختفاء صوت أمي!

حينما صمتت أمي، سكتت الحياة تماماً، اختفى صوت الحياة وضجيجها وتلاشى العالم في مساحات الصمت والغياب.

بقدرِ ما كان موت أمي صادماً، بقدرِ ما كان حتمياً، لتكتمل حكاية الشقاء، وليسدل الفقد ستائره مُعلناً نهاية الأمل.

لم يكُن موت أمي عادياً بالنسبة إلى راكان ومساعد أيضاً، أي حدث غير متوقع هو حدث غير عادي، فكيف بأن يكون الحدث هو موت أم لم تتجاوز الخمسين بعد؟

لم تكُن أمي عجوزاً لنفترض رحيلها أو لنشعر بدنو الموت، جاء الموت كلص، قبضها من بيننا بقبضة واحدة، بغمضة عين من دون أن تضوع رائحته، ومن دون أن يتكلم أو أن نراه.

رحلت هكذا!، عُميت، صُمّت وبُكِمت وشُلت ووضِعت نقطة النهاية في آخر السطر وانتهت حكايتها في الحياة رُغم أن رسالتها لم تنتهِ!

يظن بعضهم أن الإنسان يفقد قدرته على التأثير في الآخرين ما أن يرحل، لكنني أُدرك تماماً أن بقدرِ ما لبعض الراحلين القدرة على استمرارية إيذائنا بعد رحيلهم، بقدرِ ما لدى البعض القدرة على دفعنا إلى الحياة حتى بعد صمتهم الأبدي وغيابهم الدائم.

ورغُم أن أمي لم تؤذني في حياتها قطّ، إلا أنها لم تستطع أن تُدير معي عجلة الحياة بعد الرحيل، تعطلت حياتي وتوقفت بمُجردِ أن أغمضت عينيها.

شعرتُ أن كل ذبذباتها قد تلاشت، شعرتُ بأن أدوارها قد توقفت جميعها، أو ربما أنا الذي لم أستطع استشعارها بعد الغياب، فتشت عنها في الماديات وفي اللاماديات أمامي وحولي وخلفي، لم أجدها ولم أعرف لها طريقاً، لم أجد لها هالة أو حتى بصيصاً.

بقدرِ ما كُنت محتاجاً لأن أشعر بأي شيء يُفضي إلى أمي، بقدر ما كُنت بحاجة لأن أتلاشى معها أو أتماهى فيها.. كل المحاولات اللامُجدية التي كُنت أبذلها في الحياة لأجلها، كل المساعي البائسة، والآمال اللامنطقية، كل الجهد والبذل والركض خلف اللامعقول لم يعُد له أي معنى.

هي التي كانت تمنحني المعاني، هل التي جعلت لكل شيء معنى، ولكل معنى معنىً آخر.

لم تخطئ أمي في شيء إلا في أنها لم تخطئ!، ذلك الاجتهاد المثالي ساعد الموت والحياة على تكبيلي، دفعني للسقوط في تلك الفجوة الساكنة التي نهوي بها وسط الضجيج.

أغرقني غيابها في تلك التساؤلات التي لا قُدرة لأحدٍ على الإجابة عليها أو فهمها على أقل تقدير، أخذت أتساءل عن ذلك الضوء الذي يشدنا إلى داخل العتمة، وإلى تلك المساحة الشاسعة التي لا تتسع لسوانا، وإلى أولئك الأشخاص الذي يلمسوننا ولا نشعر بهم، أولئك الذين يصغروننا ولا نكبرهم وأولئك الذين يكبروننا ونكبرهم، والحياة التي تلقمنا القوانين من دون أن تكون منطقية، أخذت أفكر في كل الأشياء غير القابلة للفهم ولا للإدراك ولا للتفسير.

باختصار، شعرتُ بأنني عالق في الهوة اللامحسوسة بين الحياة واللاحياة، مُتعلق بالآخرين الذين لا يُعيرون في الحياة اهتماماً بأمثالي، أمثالي العالقين بين المحسوس واللامحسوس، المنكفئين على غرابتهم والمتماهين مع اختلافهم.

أعرف بأننا لا نختار آباءنا ولا أمهاتنا، لا نختار اليوم الذي نجيء فيه ولا الرقعة التي نُدين لها بالولاء والانتماء لمُجرد أننا ولدنا فيها، نحن لا نختار تاريخ من جئنا منهم ولا مستقبل من سيجيئون منا.

الماضي والمستقبل دائماً محض حظ أو نحس خام، لا نختارهما بل يحدثان لنا أو يقعان علينا.

رحلت أمي وأنا أعرف أن آخر ما كانت ترغب به هو أن تتركني، غابت من غير أن تختار الغياب، أعرف بأنه لو كان الأمر بيدها لأرادتني أن أموت قبلها خوفاً من أن تتركني خلفها أصارع الحياة لكنها ماتت وقُضي الأمر.

قُضي الأمر!، قُضي الأمر..

كان من الغريبِ أنني لم أكُن في المنزل حينما توفيت أمي، رجل معتنق للوحدة ومُتلبس بالعُزلة مثلي لم يكُن ليُغادر البيت إلا للضرورة، ولم تَكُن ضرورياتي كثيرة خصوصاً في تلك الفترة من الزمن ومن مرضِ أمي، لذا كُنت أقضي مُعظم أوقاتي مُنعزلاً في غرفتي ولم أكُن أغادر البيت إلا نادراً.

في ذلك الصباح، بعد ثلاثةِ أشهر من اكتشافنا لمرضها، طلب مني راكان أن أرافقه إلى مزرعة أحد أصدقائه على حدودِ الرياض، كان ينوي أن يبتاع منه صقراً جارحاً هو الذي استهوته مؤخراً تربية الطيور الجارحة والمُتاجرة بها.

رفضتُ في بداية الأمر لكنه أصر على أن أرافقه، رافقته على مضض وقضينا مُعظم الطريق نتناقش بأمور تتعلق بتناقض ميوله واهتماماته، وكيف يتاجر بالطيور الجارحة رُغم أنه نباتي لأسبابٍ تتعلق بحقوق الحيوانات!

كانت أمي تُفطر في حديقة المنزل وحدها أمام المسبح، سلمنا عليها في طريقنا للخروج وكانت سعيدة بمرافقتي لراكان في مشواره، قبلتها على رأسها مودعاً واستودعتني الله كعادتها، خرجت وعدُت بعدها بخمسِ ساعات فوجدتها في ثلاجة الموتى ميتة!

صلينا عليها صلاة العصر من يوم السبت، وكانت آخر مرة رأيتها فيها تتناول طعام الفطور في التاسعة صباحاً من اليوم نفسه!، هكذا ببساطة!، تقبّل أمك على الفطور وتعود لتدفنها عصراً تحت التراب!

كان الأمر سريعاً وصادماً لدرجةِ أن أحداً منا لم يستوعب ذلك الرحيل، لم أكُن حزيناً يومذاك بقدرِ ما كُنت مصدوماً ومأخوذاً وخارج حدود الفهم وخارطة الاستيعاب.

كان رحيلها أمراً جاثماً يصعب استيعابه ويستحيل الاستيقاظ منه!، رؤية أمي مُمددة أمامي في مغسلة الموتى كانت غير مفهومة، لم تَكُن تشبه الأم التي ودعتها صباحاً، بيضاء، جامدة، صامتة الملامح، مسلوبة الحركة والقوى! ولا تشبه أمي التي رأيتها قبل ساعات قليلة وإن كانت مريضة!

كُنت أنظر إلى أخويّ وهما ينوحان على صدرها، يطلبان منها السماح، ويخبرانها كم أنهما يحبّانها وكم هي عظيمة!، كُنت أشعر أنني خارج هذا المشهد وهذا العالم، وكأنني أراهما ولا يريانني، كانت مشاعري رمادية، مُتصلبة، كُنت واقفاً أنظر إليهما ولم أكُن أشعر بشيء، بأي شيء!

سحبني والدي من يدي لأُسلم على أمي، قمت بإمرار يدي على شعرها ومن ثم قبلت جبينها البارد من دون أن أقول شيئاً!

كُنت متفرجاً في المقبرة، واقعاً في هوة الصدمة، أنظر إلى الجموع، وإلى جثمان أمي وهو ينزل إلى قبرها، وعيناي تتنقلان بين أبي وأخويّ محاولاً استيعاب ما يجري.

كانت أصواتهم رغم ارتفاعها صامتة، وكأن أُذني قد صُمّتا تماماً، كنت أرقب شفاههم تتحرك وملامحهم مُنفعلة، وداخلي يتساءل أين اختفت أصواتهم وكيف فقدتها؟

مرت أيام العزاء كالحلم، أنام لأستيقظ من هذا الحلم وأستيقظ من دون أن أستيقظ منه!

كان الأمر أضخم من قدرتي على استيعابه، كُنت أضعف من أن أواجهه أو أن أتحمله، لم يكن لدي القدرة على التسليم به، قاومته بإنكاره ولم يكُن بيدي ما أقاومه به سوى الإنكار.

تضاءل إنكاري مع مرور الوقت، فغياب أمي عن البيت الذي لم يقدر أحد منا على أن لا يستشعره منذ اليوم الأول كان حاداً وصريحاً وقاسياً كالحقيقة، فلم يعُد للإنكار أي حجج أو قوى، تحجم حتى تلاشى ووجدتُ نفسي وجهاً لوجه أمام الحقيقة!

حاولت أن أُلملم غيابها بالحضور، حاولت أن أجمع شُتاتي، أن أحتضن روحي المفزوعة وأن أستعد لمواجهة حياةٍ لم أتخيل بأنني قد أواجهها وحدي، انشغل راكان ومساعد بي كثيراً بعد وفاة أمي مُباشرة، كانا يُدركان أنه مهما جُزعا لوفاة أمي لن يُعادل جزعهما شيئاً من جزعي.

كُنت أعرف أنني أرثهما المُر، الصعب، النقص الذي تركته أمي خلفها وعن أملها في أن يكملاه، كُنت أنا أرث أمي باختصار، وكان عليهما أن يُحافظا على هذا الإرث، رُغم أنها لم توصِ بي، لكنهما كانا يعرفان بأنني الوصية وإن لم تُكتب ولم تُقل.

كانت تطلب منا في طفولتنا في كل ليلة قبل أن ننام أن نردد مع أذكار النوم الآية «اشدد به أزري، وأشركه في أمري»، فكبرنا ونحنُ نُدرك بأننا شركاء بعضنا لبعض وأوصياء بعضنا على بعض.

وبرُغم الصدع الذي خلفته في طفولتهما، إلا أنهما كانا يشدّان من أزري، ويشتركان في أمري.

شعرتُ حين فقدت أمي بأنني فقدت وعيي بالأشياء، تقلص إدراكي وتضاءل حدسي، وفقدت الثقة بعمق وعيي وأبعاده لكنني لم أقدر على التعبير عن حزني بتقليدية، لم أحزن بالطريقة نفسها

التي عبر بها أخواي عن حزنهما.

كان حداد أبي مُختلفاً، فحينما يفقد الرجُل زوجته.. لا يقدر أن يطبطب على فقده سوى بنياته، وبما أنه لم يُنجب غير ثلاثتنا، لم يقدر أحد منا أن يطبطب على فقده ولا أن يُخفف عنه وبقي جرحه رطباً لم يتمكن أحد منا إضماده.

حينما ماتت أمي، فقدت الرغبة في كل الأشياء، لم يكُن يتمي يشبه يتم الآخرين ولا حتى يتم إخوتي، فلكل يتيم حكاية تختلف عن باقي حكايا غيره من الأيتام وإن كان المفقود نفسه!

انتفت المعاني في حياتي، وضاعت التوقعات.. ولم يبقَ إلا التوجس والحُزن واليتم والقلق.

فكرتُ كثيراً بالموت، كنت أحتاج لأن أنتهي، أو لأن أعود إلى أمي، لكنني بقيت لفترة طويلة أصارع الفكرتين.. فكرة أن قتل نفسي ستفضي بي إلى النار التي لن تجمعني بأمي، وبين أنه لا يوجد ضمانات في أن الموت هو آخر الحكاية، لا شيء يضمن لنا أن الموت هو النهاية، فكيف أقحم نفسي ببداية جديدة لا أعرف إلى أين تُفضي!

كُنت جالساً أبدد الحياة في غرفتي، أقرأ كتاباً يُعينني على قضاء الحياة، طرق أبي الباب طرقات خفيفة، اعتدلت في جلستي وأجبته وأنا أعدل من نظاراتي: تفضل يبه!

دخل مُبتسماً ابتسامة خفيفة: كيف عرفت أنني الطارق!

أنت الوحيد الذي يطرق الباب من بعد أمي!

جلس على الأريكة الجانبية قرب السرير وقال: أجل إخوانك قليلو حيا!

أعرفك أيضاً من صوت خطواتك!

حقاً؟

طبعاً، لكل واحد في هذا البيت صوت خطوات مميز.

أتصدق أنني لم ألحظ هذا يوماً!

أعتقد أن لكل انسان صوت خطوات خاصاً.

ربما، أنت الحكيم في هذا المنزل وأنت من يُدرك ما لا نُدرك.

صمت وصمتُّ، كان يتأملني وهو يضع يده تحت ذقنه، شعرتُ بالتوتر والحرج، لم أعتد وجود أبي بهذا القرب لوحدنا.

قال بعد لحظات صمت: أخبرني، كيف حالك؟!

الحمد لله.

لم نتحدث منذ وفاة والدتك، أعتقد أننا بحاجة لأن نتحدث بعضنا مع بعض.

تفضل!

كيف تشعر يا ثنيان؟، كيف تشعر وبماذا تفكر بعد وفاة والدتك؟

لماذا هذا السؤال؟

لأنه كان من المفترض أن أسألك إياه منذ الأيام الأولى، لكنني غرقت في صدمتي وحزني عليها ونسيت أنها أمك وأن خسارتك أكبر بكثير من خسارتي لها.

ماذا عن مساعد وراكان؟

هما أيضاً خسارتهما عظيمة، لكنك الخاسر الأكبر.

لأن لدي مشاكل!

بل لأنك الأقرب إليها، والأحب إليها، أنا لا أرى أن لديك مشاكل، ولم أرَ هذه المشاكل التي تقصدها قطّ.

ربما لأنك لم ترني فعلاً!

انحنى في جلسته مُقترباً وقال: ثنيان أنت مميز فعلاً، والدتك كانت تخاف عليك كثيراً من شدة حُبها لك، لكنك فعلاً لا تختلف عن أي أحد إلا في تميزك عنا، أنت مُبدع ولطالما فخرت والدتك بك.

صمت، فاسترسل: استثمر حزنك يا ثنيان، اكتب، لطالما ما كُنت تقول بأن الكتابة أنقذتك، خلّد أمك بالكتابة يا ثنيان، لطالما كانت تفخر بهذا الجانب فيك.

تمتمت: إن شاء الله.

وأريدك في الغداء معي كل يوم.

ابشر.

تصبح على خير.

(استثمر حزنك يا ثنيان)، كانت هذه جملة أمي دائماً، دائماً ما كانت ترددها حتى تغلغلت داخل أفكار أبي وتبناها.

لطالما آمنت أمي بأن الألم هِبة، بأن الحزن هبة، وربما بأن الفقد هِبة!، الحقيقة أننا لم نصل إلى جانب الفقد، لكنني أعتقد بأنها كانت تظن ذلك، هي التي تفلسف الأمور، وتدعونا دوماً للتطلع والتأمل فيما وراء الأحداث والأشياء.

لو كانت أمي موجودة لطلبت مني أن استثمر حزني، أن أستغل الحزن إلى أقصى درجة ممكنة، وأن أبني من ألمي نجاحاً يخفف من وجع الذكرى.

كل نجاحاتي التي حققتها جاءت بعد ألم، كل كتاب كتبته، كتبته لأنفض عن نفسي بقايا الوجع المُستدام والضجر المُتنامي العالق فيها.

لم أعُد محتاجاً للاستمرار في الحياة، لكنني مدين لأبي بالبقاء مثلما كُنت مُديناً لأمي به.

يبدو أن هذا ما سأكون عليه دائماً، الرجل المدين لغيره بالبقاء حياً، من المؤلم أن نستمر في البقاء أحياءً لنُسدد دين إنجابنا وجلبنا إلى هذه الحياة، سواءٌ كان وجودنا في الحياة فضلاً أم تجنياً علينا.

لم تُكن رحلتي في البحث عن الطمأنينة سهلة، ركضي خلفها زادني قلقاً، لم يزد سعيي في أن أُشبه الآخرين إلا اختلافاً عنهم، بحثي عن اليقين بعثرني في الشك، توقي للتشابه مرغني بالاختلاف.

كُنت أراقب قطرات الماء وهي تعبر ملامح وجهي، عيني الصغيرتين خلف النظارة الطبية التي لطالما اخترتها بلا اطار، خطوط التجاعيد حول عيني رغم أنني مازلت في مُنتصفِ عشريناتي، و«النقرة» الواضحة التي تتوسط ذقني والتي كانت الشيء الوحيد الذي ورثته من أمي.

يُخيل إلي أحياناً أنني لا أعرف ذاتي، فكيف أتوقع من العالم أن يعرفها؟!

هذه الملامح، التي لم تُكن إلا ملامحي، وهذا الهم الذي لم يكُن سوى همي، كل هذه الأشياء لم أعد أعرفها، تُهتُ عنها أو ربما تاهت عني.

أشعر أنني بلا ملامح، بهمٍ جديد لا قدرة لي على فهمه أو التعايش معه.

أُفكر، لِمَ أقاوم الحياة ما دُمت خاسراً لا محالة فيها؟!.. لِمَ لا أستسلم لها، وادعها تجرفني إلى حيث تشتهي مُتماهياً مع موجها العاتي بدونِ حراك منتظراً إياها أن توصلني حيث تبتغي.

من قال إن ما علمتني إياه أمي هو الصواب؟!.. لِمَ أفترض بأنه من الأسعد لي هو أن أقضي حياتي في مقاومة ونضال؟

لِمَ أُفكر بما لطالما فكرت به أمي؟!.. أمي التي لطالما فكرت بالأفضل لي وليس بالأنسب لمن هو في حالتي!، لِمَ أعتنق فكرة أن الاستسلام خسارة، وبأن المقاومة وجه من وجوه الفوز والانتصار!

ربما حان الوقت لأقبل اختلافي، لأقبل بأن أعيش مُختلفاً لأنني لطالما عشت مُختلفاً بلا تقبل مني لنفسي ولا قبول من الآخر لي.

سعت أمي لإدماجي أولاً في مجتمعنا الصغير، حاولت أن تستغل أطفال العائلة في محاولة منها لجعلي اجتماعياً، مثلها ككل الأمهات اللاتي يتدرجن في توسيع دائرة علاقات أطفالهن كلما كبروا وكلما ازدادوا وعياً وقدرة على الاندماج مع الآخرين.

كُنت أتزمل بأخوي في صغرنا حين الاجتماع مع بقية الأطفال، أعتمد عليهما ليُقحموني داخل دائرة اللعب، لأنني لم أعرف يوماً كيف أتسلل إليها وحدي من دون مساعدة.

في البداية وعندما كُنا صغاراً جداً، وبغريزة أخوية صادقة، كانا دائماً ما يحاولان إشراكي معهما، يجرانني إلى المجموعة بلا وعي منهما ولا إيعاز مني، يُشركاني باللعب بطرق غير مُباشرة وبطرقٍ مُباشرة في أحيانٍ أُخرى.

لكننا وعندما كبرنا بعض الشيء، وحينما تقدمنا بالطفولة وزاد وعيي ووعيهما باختلافي، توقفا عن محاولات إدماجي في مجموعات اللعب، ربما شعرا بالعبء الذي أشكله عليهما، أو بالحرج من غرابتي، أو ربما أدركا بأنني من يكبرهما وبأن من حقهما أن يتكئا عليّ، لا أن أتكئ عليهما.

الحقيقة أنني لا أعرف ما الذي فهمه أخوايّ عن طبيعتي، متى فهما وكيف فهما وماذا أخبرتهما أمي عني!

لم أسألها ولم أسألهما، لكنني أُدرك بلا شك أن أمي قد سبق وحدثتهما عن أسباب غرابتي، وبأنني قد كسبت تعاطفهما اللامشروط ومؤازرتهما الدائمة، ودعمهما اللامنتهي بسببها هي، هي الشجرة الضخمة الكبيرة التي لطالما ظللتنا.

صحيح أنني أخوهما الكبير، لكنني لم أكُن فعلاً كذلك، لم أتصرف يوماً على هذا الأساس، ولم يعاملاني كأخٍ كبير لهما، على العكس تماماً، كُنت دائماً ما أشعر بأنني الأصغر بينهما، غالباً ما كُنت أعتمد عليهما، دائماً ما كُنت أحتاج إليهما ودائماً ما كانا يقاتلان من أجلي.

حينما أعود بذاكرتي إلى الطفولة، وأسترجع الأحداث والمواقف التي مررت بها لا أقدر على استرجاع وجوه الأطفال رغم دقة ذاكرتي، دائماً ما كانت وجوههم ضبابية بالنسبة إليّ، غامضة الملامح، لكنني دائماً ما كُنت أذكر تفاصيل أحذيتهم بدقة لا تعقل، وكأنني أراها أمامي مُباشرة، تلك التفاصيل الصغيرة التي تختلف من حذاء إلى آخر وبين طفلِ وآخر، كانت تعني لي كثيراً، وتُثير اهتمامي وتركيزي كما لم تفعل وجوههم!

لا أدري لماذا كانت تهمني تلك الأحذية، لماذا كانت تشدني أكثر مما كانت تفعل الملامح والأعين؟!، قد يبدو الأمر وكأنني أستخف بالآخرين أو أحاول الإساءة إليهم، لكنني حقاً لا أعرف لِمَ ترتبط ذكريات وأسماء الطفولة بالأحذية!

يُخيل إلي أنني لم أُكن أجرؤ على النظر في أعينهم حينذاك، كُنت ألتف عليهم بشكلٍ لا مُباشر، أرقب الأطفال من بعيد، محاولاً فهم أبجديات تواصلهم ولُغز علاقاتهم.

تذكرتك تلك التفاصيل وأنا أفترش الأرض مع عمتي التي تطوعت بأن تُشاركني ترتيب حاجات أمي قبل التخلص منها!، مسكت حذاء أمي الرياضي الأثير الذي كانت تفضل ارتداءه في جولات المشي التي كنا نتشارك فيها كل ليلة.

مسحت على الحذاء بيدي كمن يمسح على مصباحٍ سحري متوقعاً تحقيق أحلامه، وأنا أتساءل في داخلي لِمَ يحاول أهل الفقيد دائماً إماتته مرة أُخرى بالتخلص من كُل ما قد يبقيه حياً!، لِمَ يحرقون كل ما تبقى منه بالتبرع بذكرياته الملموسة، ولما يحاولون طمس وجوده في الحياة وكأنه لم يكُن يوماً فيها!، وكأنه جاء من العدم وانقضى إلى العدم!

أُدرك أن قرار التخلص من حاجات أمي وذكرياتها لم يكُن سهلاً على والدي، أعرف أنه كان مُتردداً في عرض الفكرةِ عليّ، وأذكر كيف كانت ملامحه تنز توتراً وهو يستأذنني في إخراج حاجات أمي من البيت والتبرع بها لمن يحتاج إليها!

عرفت أن والدي قد استأذن أخوي قبلي في ذلك، وبأنه قد عرض عليهما أن يساعدا في إخراجها والاحتفاظ بما يُريدان الاحتفاظ به كذكرى لها ومنها، كُنت آخر من عُرض عليه الأمر، ربما لأنه كان يُدرك بأن رجُلاً مثلي عالق بالزمن ومُعلق بالمكان من الصعبِ عليه أن يتجاوز النهاية.

كُنت أسترق النظر إلى عمتي، وهي تفرز أغراض أمي وحاجاتها قبل أن تضعها في الصناديق الكرتونية البنية البائسة أمامنا.

لم تُكن عمتي هند العمة المفضلة بالنسبة إليّ، وقطعاً لم أكُن ابن أخيها المفضل!

تملأ ذاكرتي صور بعيدة لها في طفولتي، أراها تتمرغ في وحل الذاكرة، وهي تشد أذني حتى تكاد تقطعها!، كنت تجرني من أذني إلى أُمي دائماً، تشكو الصغير الوقح الذي لطالما كان مُتنافراً مع ابنها، فلا هو الذي يلعب معه ولا هو الذي يسمح له بالمشاركة في ألعابه.

لم تتغير علاقتي بعمتي هند كثيراً، كبرتُ وكبر البرود بيننا، مازالت ترى بي ذلك الصبي المنطوي، المُدلل والغارق في حُب ذاته حسب مفاهيمها وتفسيرها للمعطيات.

مدت إلي بمجموعة من الدفاتر، قالت بصوتٍ هادئ لم أعهده: ثنيان، يبدو أنها مُذكرات والدتك!

مددتُ يدي وأخذتها منها، فمدت لي بثلاث مُذكرات أُخرى: انظر! هذه أيضاً!، الله يرحمها ويغفر لها!

أخذتها من دونِ أن أتكلم، وضعتها في الصندوق إلى جانبي بقلبٍ يلهث، كُنت أُفكر فيما لو لم أتنبّه لها، لو سلبتها مني وتخلصت منها بدونِ أن تمنحني الحق في الاطلاع والحصول عليها، خبأتها بسرعة وأنا أستشعر رائحة أمي تضوع بحاجاتها، أتذكر المواقف والأحداث والأيام التي كانت ترتدي فيها كل قطعة من الملابس.

وضعتُ مشطها وعطورها في صندوقي، كل ورقة تحمل خطها، أجهزتها الإلكترونية، وسجادة صلاتها.

تذكرت بول أوستر عندما كتب عن وفاة والده بأن « لا شيء أكثر رهبة من مواجهة أغراض رجُل ميت»، وأخذت أُفكر في الرهبة وفي الألم الذي يعترينا عند مواجهة أغراض أمهاتنا عند الرحيل!

لم أشعر أنني دخيل مثلما شعر بول أوستر وهو يلملم حاجات أبيه، على العكس تماماً، شعرتُ بأن كُل شيء هو حقي، ينتمي لي ويعود إلي!

كنت أرقب عمتي هند بانزعاج وأنا أعرف بأنها الدخيلة بيننا، كُنت أعرف بأن أمي لم تكُن لتقبل بأن تفتش عمتي في حاجاتها حتى وإن كانت ميتة!

لكن والدي اختارها مضطراً لأنه لم يكُن لأمي أية أخوات، ولم يكُن زوجات أو بنات أخوالي ليقبلن أن أشاركهن المكان لترتيب أشيائها.

كُنت أشعر وأنا جالس أمامها على الأرض أننا لم نُمت أمي مرة أُخرى بالتخلص من حاجاتها فحسب، بل أمتناها للمرة الثالثة بانتهاك خصوصياتها، وبالاطلاع على ما ليس لأحدٍ الحق

في الاطلاع عليه.

انتشلني صوت عمتي وهي تقول: كانت تُحبك جداً يا ثنيان!

هززتُ رأسي مؤيداً من دون أن أنظر إليها، فاسترسلت: كانت تتمنى أن تفرح بك! أن تراك سعيداً ومتزوجاً!

رفعتُ رأسي فقالت: تحتاج إلى أن تتزوج يا ثنيان، هذا الفراغ بداخلك لن يملأه إلا امرأة!، تحتاج إلى بنت الحلال!

أخذت أُفكر في ما كانت تقوله عمتي من دون أن أرد عليها، في فكرتها حيال الخواء والامتلاء والاكتفاء، وكيف هو بسيط الموت بالنسبة إليها، مُجرد مرحلة من مراحل الوجود، تقبلها برضا وتتجاوزها بشجاعة، وكيف أن البشر بالنسبة إليها من السهل أو الوارد تعويضهم مهما كان نوع العلاقة التي تربط بينها وبينهم!

لا شك عندي في أنها عرضت فكرة «العوض» هذه على والدي، ولن أستغرب كثيراً أو أندهش لو صادق على ما تقوله وقبل بالفكرة ظاناً أنه أكثر من يُعاني الحاجة!، ربما التخلص من حاجات أمي هو تمهيد لفصلٍ جديد في حياة أبي وشكلٍ آخر من أشكال الحياة التي قد يُقدم عليها من دون أن يلتفت إلى أمي خلفه.

لطالما أحب والدي أمي، لكنني أفهم بأنه يشعر بأنني قد سرقتها منه، وبأني من أستأنس بالاهتمام الأكبر والأعظم في حياتها.

ربما كان يظن بأن تلك المسافة التي خلقها وجودي بينهما، تشفع له ببداية جديدة مع غيرها بعد غياب أمي ورحيلها، والدي يؤمن بالحياةِ بعد الموت، بالبدايات الجديدة وبأن للحياة دورة من الطبيعي أن تدور كاملة، لا يؤخرها شيء، ولا يؤجلها شيء، ولا يوقفها شيء، ولا يساورني الشك في أن الزواج من جديد بالنسبة إليه شكل من أشكال الحياة خصوصاً وإنه لم يرزق بابنة، تُطبطب على فقده، وتعينه على تجرع علقم الحياة.

أشعر أحياناًُ بأن المعضلة ليست في الحياة بل في الإنسان!

الإنسان الدوني والفوقي، الذليل والمُتكبر، الخانع والمتسلط، القيادي والمنصاع، الاجتماعي والمنطوي، القانع والطامع، الخيّر والشرير، المُسالم والمؤذي، المُسير والمُخير، المُعضلة في هذا الإنسان المُتناقض الذي لا يشعر بما يُعانيه أخوه الإنسان إلا إذا مر بالتجربة نفسها وعايش الشعور نفسه.

انتشلني صوت عمتي من بعيد: هاه!، ما رأيك؟!

في ماذا؟

في فكرة الزواج!

توفيت أمي منذ شهرين يا عمة، كما أني لستُ راغباً بالزواج الآن.

أخذتُ أُفكر في تسخيف عمتي للحياةِ بقدر تسخيفها للموت، هي التي تظن بأن الزواج دائماً ما يكون هو أسهل وأسرع وأبسط الحلول!

عاد صوت عمتي هند إلى عادته، حاداً مُتطفلاً، ثرثاراً ومُزعجاً وهي تقيم حياتي وحالتي وحاجتي بعد وفاة أمي من دون أن أسألها ذلك، تذكرت حيلة أمي التي علمتني إياها في صغري، كانت تقول لي دائماً « عندما يزعجك الآخرون يا ثنيان في تطفلهم عليك أو حينما يحاولون إيذاءك بكلامهم، لا تستقبل كلماتهم، اجعل صمتك يرتد عليهم من دون أن يلوثوا مشاعرك أو أن يُقلقوا أفكارك».

كُنت أتأمل ملابس عمتي وهي تثرثر عليّ، دائماً ما كانت ترتدي أطقم الملابس غير المُتناسقة، تُحب كثيراً الألوان وتمازج بينها بجرأة مُزعجة، تعقص شعرها إلى الخلف بإهمال وبعدمِ ترتيب، ودائماً ما كانت ترتدي جوارب سوداء رُغم أنني لم يسبق لي أن رأيتها ترتدي غير الصنادل المُسطحة.

دائماً ما كانت تشدني طريقة ارتدائها لأحذيتها، كانت طريقتها غريبة مثلها، فلم يسبق لي أن رأيت امرأة ترتدي الجوارب السوداء مع الصنادل بطريقتها تلك.

لا أعرف لماذا شعرت بالغثيان فجأة وهي تتحدث، رُغم أنني لم أحتقر يوماً امرأة مهما تلاعبت بي ومهما فعلت لي، لأنني أؤمن كما يؤمن نيتشه في أن «كلاً منا يحمل بداخله صورة

للمرأة مأخوذة من صورة أمه، ومن هُنا يتحدد موقفه تجاههن إما أن يحترمهن وإما أن يحتقرهن أو يشعر باللامُبالاة تجاههن»، وقد كُنت فعلاً احترمهن في وعي وغالباً في لا وعيي كذلك، نظراً لارتباطهن بقيمة أمي وتمثيلهن لها.

مضى وقت طويل لم أشعر به بالغثيان حينما أخاف أو أتوتر أو أنزعج، كُنت أعاني هذه الأعراض في طفولتي، يترجم جسدي قلقي وانفعالي بهذه الطريقة، فتثور معدتي وأتقيأ كل الخوف والتوتر والقلق.

لا أعرف كيف تخلصت من تلك المعضلة حينذاك، استمرت لسنوات حتى خفت أعراضها ولم تعُد تنتابني، لكنني شعرت بالأعراض نفسها وكذلك الضيق نفسه والمخاوف نفسها كما لو كُنت ذلك الطفل، كما لو أننا تنكّرنا لتلك الأيام ولذلك الزمن فجأة.

لم تُكن فكرة أن تشاركني عمتي ترتيب حاجات أمي موفقة ولا مفيدة، لم تحمل لي أي عزاء أو مواساة، على النقيض تماماً، جرتني تلك الساعات إلى أوقات لم أحتج للعودة إليها، وذكريات لم أرغب بتذكرها، ومشاعر لم أرغب بعيشها مُجدداً.

عبأتُ صندوقي بكُل ما استطعتُ أن أحصل عليه من متعلقات أُمي، أغلقته وحملته إلى غرفتي مُسرعاً، خبأته فيها بعيداً عن فضول عمتي وقسوة العالم، ركضتُ إلى الحمام وتقيأت كل امتعاضي ورفضي وحزني واحتجاجي.

عندما عُدت إلى عمتي التي عادت عمي تثرثر في الموضوع نفسه، فتحتُ صندوقاً جديداً وقررتُ أن أستمع إليها من دون أن أستمع!

* * * *

الأمهات هن أكثر من يخشى الموت لأنهن يُدركن بأن حيواتهن مُرتبطة بمن خُلقوا منهن، يشعرن بالمسؤولية والالتزام الأبدي تجاه أبنائهن، وبأن هُناك واجبات مفروضة والتزامات دائمة توجب عليهن العيش والتنفس والحياة!

تعيش مُعظم الأمهات من أجلِ ولأجلِ أبنائهن، تتغير حياة المرأة ما إن تلفظ رحمها إنساناً إلى الحياة، تصبح حياتها أكثر أهمية وقيمة حينما تتفرع منها سلسلة من الحيوات، تمتد بامتدادِ أفراد عائلتها فتشعر بعبء ومسؤولية جلبهم إلى هذا العالم، فيكبر الواجب في داخلها، وتتخلق التضحيات وتتفرّع.

ينظر الرجل إلى الأبوة بعينٍ مُختلفة، غالباً ما يشعر الرجل بأن مسؤوليته تتم تجاه أبنائه حالما يولدون، وبأنه قد قام بتضحيته الكبرى حينما أصبح أباً لذا لا يخاف الموت كما تخافه المرأة / الأم، يتمسك بالحياة من أجل نفسه ومن أجل الحياة وليس خوفاً مما قد يكلف موته أبناءه!

أعرف بأن أُمي قد خافت كثيراً من الموت، خصوصاً بعدما اكتشفت مرضها الخبيث، اللئيم، السريع والصامت.

أُفكر أحياناً فيما لو لم تمت أمي غرقاً وظلت تعاني المرض والألم حتى المرحلة التي يقدر عليها فيها ويفتك بها، أُفكر في الألم الذي كانت لتُعانيه وللموت الذي كُنا سنقابله معها ألف مرة ومرة.

قد يكون من رحمة الله بها أن ماتت غرقاً، ربما لم يرد لها الله هذا القدر من المعاناة، ربما لم يرد لنا رؤيتها تُعاني أكثر مما رأيناها تُعاني.

أناني هو الإنسان في والديه وفي أبنائه، يُريد أن يتملكهم إلى الأبد مهما آلت إليه أحوالهم، مهما عانوا وقاسوا وتألموا، يتمسك بحيواتهم وأنفاسهم مهما مروا به، لأجله لا لأجلهم، لحاجته الماسة إليهم ولعدم قدرته على التخلي عنهم.

لم تَكُن أمي لتتخلى عن حيواتنا لأجلها ولم نُكن لنتخلى عن حياتها لأجلنا لا لأجلها، كانت أمي ستقاوم حتى الرمق الأخير، وكُنا سنكتفي بوجودها حية، تتنفس، طريحة، مريضة، مُقعدة أو فاقدة لحواسها، المهم أن تظل وأن تبقى وأن تتنفس!

لو كان الأمر بيدي لما تخليتُ عنها مهما كان شكل حياتها وجودتها، لما سمحت لها بأن تُغادرنا مهما كانت أوجاعها ومهما كان حجم مُعاناتها، كُنت لأدفعها للبقاء حية، للنضال وللقتال وللأمل الذي تتشارك معه في اسمها، والتي كانت دائماً ما تعتز به وتتباهى بمعناه.

لطالما حاولت أن تدفعني أمي إلى الحياة وأن تُجبرني عليها، حتى في أكثر أوقات كآبتي ووحدتي ويأسي وبؤسي، وقد كان من العدل أن أحاول دفعها للعيش مهما كان مرضها ومهما كان قدر آلامها، كانت مدينة لي بالمقاومة وبالسعي، بقدرٍ ما قاومت وما سعيت من أجلها.

لم يمنحها الموت فرصة لا للمحاولة ولا للأمل ولا للوداع، جاء سريعاً، خاطفاً وغير متوقع رُغم المرض، جاءها من طريقٍ مُختلف، بصورةٍ غادرة، مُتنكراً بوجهٍ آخر، مُختطفاً إياها خارج مسرح الحياة.

أذكر الحوار الذي دار بيننا بعد أيام من معرفتنا بمرضها، اتصلت بي في غرفتي وطلبت مني أن أجيء إلى غرفتها، كانت تجلس على السرير، مسدلة شعرها فوق كتفيها، مُمددة الساقين وفي حضنها كتاب عن التشافي بالطاقة، أشارت إلي بيدها وقالت «تعال ثنيان حبيبي، اجلس»، جلست أمامها فضمتني إليها بقوة، كانت تضمني وهي تتشبث بثوبي بقوة وكأنها تخاف من أن أفلت منها أو أن تفلت مني، كُنت أشعر بها وهي تحاول أن تكتم غصتها وأن تبتلع عبراتها، شعرت بدموعها تبلل كتفي، سألتها: أمي، هل يؤلمكِ شيء؟

قلبي يوجعني!

قلبكِ أم صدركِ؟

قلبي الموجوع يا ثنيان.

لِمَ يوجعكِ؟

لأنني خائفة!

من الموت؟

بل من الحياة، أخاف عليكم من الحياة يا ثنيان، أخاف أن أترككم فيها لوحدكم.

لا تتركينا إذاً!

ضحكت وهي تمسح دمعها: ليت الأمر بيدي يا ثنيان، ليت الأمور بهذه البساطة، لو كان الأمر بيدي لما تركتكم أبداً.

كانت تلك المرة الرابعة أو الخامسة التي أرى فيها دموع أمي طوال ربع القرن الذي قضيته معها، كُنت مؤمناً في طفولتي بأن الأمهات لا يبكين، مهما حدث في هذه الحياة فإن الأمهات لا يمرضن ولا يخفن ولا يحزن ولا يبكين، كانت أمي دائماً في عيني قوية، شجاعة، متفائلة وسعيدة، لذا كان وقع دموعها عليّ عظيماً حينما رأيتها تبكي يوم ما توفيت جدتي، كما لم تكَن رؤيتها تبكي على السرير ذلك اليوم سهلة عليّ قطّ، كانت تلك المرة الأولى التي تجاهر بها أمي بحُزنها وقلقها وخوفها أمامي، فشعرتُ بنفسي أتضاءل، أصغر وأنكص، شعرتُ بروح ثنيان الطفل الصغير تعود لتسكن جسد ثنيان الرجل البالغ، فعدتُ عاجزاً، هشاً، مرعوباً وقليل الحيلة.

أعرف اليوم بأن أمي لم تَكُن قوية دائماً كما كانت تبدو لنا، ولم تكُن شجاعة ولا متفائلة طوال الوقت كما ظنناها، كانت لأمي لحظات حزنها الكبيرة والصغيرة، الطويلة والعابرة، لكنها أجادت إخفاءها مثلها كمثل معظم الأمهات اللاتي يبتلعن همومهن ويرقصن على أحزانهن كيلا يراها ولا يشعر بها أطفالهن الصغار.

لا أعرف لِمَ بثت لي أمي حُزنها تلك الليلة، هي التي لا تشكو بثها وحزنها إلا إلى الله!

رُبما أرادت أن تشعرني بضعفها وأن تُمهد لي الرحيل وأن تُنبهني إلى احتمالية الموت والغياب، لكنها كانت تعرف أنني لا أفهم التلميح غالباً، تُدرك أنني لا أُجيد قراءة الإشارات ولا الإيحاءات، فلِمَ لم تواجهني بالأمر؟ لِمَ لم تطلب مني كعادتها أن أنظر إلى عينيها مُباشرة حينما نتكلم، ولِمَ لم تقل لي «ثنيان، سوف أموت قريباً، تجهز واستعد!» لِمَ لم تَكُن مُباشرة، جازمة وقاطعة من دون أن يكون في كلامها مجال للشك ولا طريق للتأويل!

لطالما كُنت أفكر، لِمَ لا يتساوى الناس بمقدار الألم الذي يتعرضون إليه ويواجهونه في الحياة؟!، لِمَ تتفاوت معاناة البشر وتختلف أشكال أحزانهم وأحجامها ومقاديرها؟!

كانت مُذكرات أمي هي أعظم ما تركت خلفها، لم تَكُن مذكرات بقدرِ ما كانت رسائل لي ولإخوتي، خصصت لكُلِ واحد منا بعض الدفاتر، وكانت تكتب لكُلِ واحد منا رسالة صغيرة يومية تحكي فيها بعض المواقف التي مررنا بها، ما تعلمنا في هذا اليوم منها أو ما تعلمت هي منا في هذا اليوم، هي التي كانت تفتخر بما تتعلمه منا بقدرِ ما تفتخر بما تُعلمه لنا، هي التي لطالما أشعرتنا بامتنانها لكوننا أبناءها مثلما كنا نشعر بامتناننا لكونها أمنا!

بقدرِ ما كانت كلمات أمي مُمتنة لوجودي، مُحبة، وفخورة، بقدرِ ما كان يكتنفها الألم ويُمزقها الخوف، فلم تَكُن تربيتي سهلة ولم تَكُن تشبه تربية إخوتي أو الأطفال الآخرين، كان تحدياً لا يُشبه التحديات وتجربة تختلف عن مُعظم التجارب.

في نموذج كيوبلر روس أو المعروف بمراحل الصدمة الخمس يُشار إلى أن لكُل تجربة حُزناً أو صدمة كبيرة، خمس مراحل تترجح ما بين الإنكار في البداية، فالغضب، فالمساومة، فالاكتئاب، فالقبول!

ورغم أنني لطالما شعرتُ بقبول أمي لي، ورغم أنها لم تشعرني يوماً لا بإنكارها لطبيعتي ولا بالغضب من اختلافي، ورغم أنني لم أشعر بمساومتها ولا باكتئابها بل بتفهمها وبقبولها اللا مشروط، إلا أنني وجدتها في مذاكراتها كباقي البشر، تُنكر، وتغضب، وتساوم، وتكتئب وتقبل في نهاية الأمر برضا أحياناً وبمرارة في أحيانٍ أُخرى!

كان إحساس أمي بي غير عادي في كلماتها، فهمها لي رُغم تعقّد أفكاري وتشابك مشاعري لم يكُن عادياً أيضاً، محاولاتها لأن تتقمصني وجدانياً، تأثرها بمشاعري وتعاطفها معي لم يكُن محدوداً ولا مشروطاً، كانت أُمي تتألم أكثر مما تُظهِر، وتفهم أكثر مما تبدو وتُحاول أكثر مما نلاحظ أو نشعر!

بقدرِ ما واست كلمات أمي قلبي في مذكراتها وذكرياتها الحلوة معي، إلا أن حجم الألم الذي عانته وقاسته من دون أن نعرف أو نشعر أو نفهم، كان ضخماً ومُراً لدرجةٍ لا يقدر على تحملها إلا قلب أم، ولم يكُن قلب أمي كأي قلب، ولم تَكُن أمي كأي أم!

لم أقرأ مذكرات أمي التي كتبتها لأخويّ، أعطيتهما إياها من دون أن أطلع عليها، ولا أعرف لماذا فقدت فضولي في الاطلاع على ما كتبته لهما بعدما قرأت ما كتبته لي رُغم شوقي وتوقي لأي حرفٍ أو إشارة منها، ربما خشيت أن أجد لها في صفحاتهما ألماً أكبر، أو ربما خشيت أن أجد نفسي مُذنباً في كلماتها، أنا الرجل الذي لم يعُد قادراً على أن يحتمل الذنب.

الذنب الذي يكتنفني تجاه الكثير من المواقف والأحداث والأشخاص من دون أن أقترف ذنباً!

تذكرتُ حينذاك عمّار!

كان عمّار الوجه اللطيف الطيب الوحيد في مثل سني من خارج دائرتي والذي أتذكر ملامحه تماماً مثلما أتذكر تفاصيل أحذيته!

قابلته في الصفِ الثالث الابتدائي عندما نُقلت إلى فصله في بداية العام الدراسي، وذلك بعدما شكت أمي طلاب فصلي القديم الذين كانوا يتسابقون على التنمر عليَّ وإيذائي، وطلبت من إدارة المدرسة نقلي إلى فصل آخر لعلّي أرتاح فيه من تنمر الطلاب!

الحقيقة لم يكُن نقلي من فصلي القديم حلاً، على العكس تماماً توسعت دائرة التنمر عليّ، وازداد عدد المُتنمرين، مر وقت طويل حتى استطعت الاندماج مع زملائي الجدد الذين حاولت الابتعاد عنهم في أوقاتٍ كثيرة ومجاراتهم في أوقاتٍ أكثر، حاولت أن أكسبهم بشتى السُبل وبمُختلف الأساليب، ليتوقفوا عن إهانتي، وليكفوا عن أذيتي وليعاملوني كولدٍ غير مرئي!

هذا كُل ما كُنت أحتاجه حينذاك، أن أكون لا مرئياً فلا أؤذيهم ولا يؤذونني.

لم يتطلب مني عمار أي جُهد ليُصاحبني، كان طيباً ولطيفاً منذ اللحظة الأولى التي وطئت بها قدمي أرض الفصل الجديد – أو أرض المعركة الجديدة -!، كان من الغريبِ عليّ وقتذاك ذلك القبول، كان مُبهماً ومجهولاً وغير مفهوم لأنني لم أعتده من قبل.

تعامل عمار مع اختلافي وغرابتي بتفهمٍ وكأنه قد ميز اختلافي بعينٍ ناضجة وروحٍ واعية لا تشبه أعين الأطفال وأرواحهم.

لم يُعنِّ عمار على المضي قُدماً في المدرسة فحسب، بل أعانني على مُجاراة الحياة التي كانت ترمز لها المدرسة في طفولتي.

كان عمار مُختلفاً بطريقته، لم يَكُن مثلي لكنه لم يَكُن أيضاً كباقي الأولاد، كان هادئاً، مُسالماً، خجولاً، حذراً، مُختلفاً عن معظم من هم في عُمره.

لاشك عندي بأن هذا الاختلاف هو ما قرّب المسافات بيننا، لم يُعانِ عمار من أية عراقيل أكاديمية، على العكس تماماً، كان ذكياً ومُجتهداً ومتفوقاً في دراسته بخلاف وضعي أنا حيث كُنت أُجاهد لأُجاري أساليب التعليم التي لم تَكُن تناسبني رغم حدةِ ذكائي ونبوغي.

لم أكُن أعي قبل معرفتي بعمار معنى أن يكون لك زوج أم، لم أكُن أعرف أصلاً بأن هُناك وحشاً اسمه الطلاق، وحشاً ينهش في لحوم الأطفال الغضة، يشوههم أحياناً ويدمرهم في حالات كثيرة.

لم يكُن عمار على طبيعته، كان حزيناً، قاتماً، لا يبادرني بالحديث في أوقات الاستراحة، لم يُعد يأكل طعامه كما كان يفعل دائماً قبل أن يلعب، كان ينزوي في الركُن، يجلس على الأرض ويراقب الأولاد وهم يلعبون بعينين أُدرك اليوم أنهما كانتا مهمومتين، خائفتين وبائستين وشديدَتيْ العجز والحيرة.

كُنا نفترش الأرض معاً في فسحة المُدرسة، نتبادل الصمت ونتشارك مراقبة الآخرين، كانت ساحة المُدرسة كبيرة، تتوزع في زواياها مقاعد إسمنتية، وبأرضياتٍ وجدران بيضاء خُط عليها بأبياتِ شعر عربية تتغنى بفضل العلم والُمعلم والنظافة والدين والقلم.

قال لي عمار وهو يعبث بعلبة عصير كرتونية برتقالية فارغة بيده: أمي ستتزوج غداً الخميس!

صمتُّ لأنني لم أستوعب كيف تتزوج الأم وهي متزوجة وأم!، فاسترسل وقال بصوتٍ حاول أن يكون مُبتهجاً وأن يطرد منه الخوف: سيصبح لدي أبان وأمّان!

كيف يكون لك أبان وأمّان؟

تزوج أبي في الصيف من امرأة أُخرى، وستتزوج أمي غداً، سيكون زوج أمي أبي الثاني مثلما أصبحت زوجة أبي أُمي الثانية!

أفهم اليوم بأن عماراً كان يحاول أن يبرر لوالديه، كان يحاول أن يطمئن قلبه بكلماته تلك!

قُلت: ولماذا لا يتزوج والداك بعضهما بعضاً؟

وش فيك أنت!، كانا متزوجين وتطلقا!

ماذا تعني بتطلقا؟

غبي أنت!، تطلقا يعني لم يعودا متزوجين، كل واحد منهما يعيش في بيت.

وأنت؟، أين تعيش؟

لاشك عندي في أن سؤالي الساذج ذلك قد مزق نياط قلبه وإن لم أفهم ذلك وقتذاك، أذكر كيف طأطأ رأسه وكيف بدا ريقه عالقاً في حنجرته وهو يحاول ابتلاعه، قال بصوتٍ مخنوق: أنا أعيش مع أمي وأزور أبي يومي الخميس والجمعة.

وإذا تزوجت أمك؟

سأظل معها، هي قالت إنها لن تتركني وبإمكاني أن أعيش معها ومع أبي الجديد.

سكت وأنا أحاول استيعاب ذلك المعنى الجديد المُخيف، فاسترسل: وإن لم تعد أمي تُريدني بإمكاني أن أذهب وأعيش مع أبي وأمي الجديدة.

هل تحبها؟، أمك الجديدة؟

لا أعرف، أبي يحبها.. تكون لطيفة معي عندما يكون موجوداً.

وعندما لا يكون موجوداً؟

لا تكون لطيفة في غيابه، تشد أذني أحياناً وتهددني أن لا أخبر أبي.

ولِمَ لا تخبره؟

لأنها هددتني أن لا أخبره!

- وإن لم ترغب أمك الجديدة بأن تعيش معهما؟

سأذهب للعيش مع جدتي وخالاتي وإن لم يرغبوا بي سأذهب للعيش مع جدي وجدتي وأعمامي.

وإن لم يرغبوا بك جميعهم؟

لا أعرف!

تعال وعش معنا في بيتنا!

ما ينفع!، لازم الإنسان يعيش مع عائلته، اللي عندهم نفس الاسم، ما ينفع يعيش مع الناس اللي اسمهم مُختلف عن اسمه!

أنت حزين؟

شوي حزين، وشوي خايف!

تدارك نفسه، رفع رأسه واغتصب ابتسامة وقال: لكن فرحان بيكون عندي أبين وأميّن، كل الأولاد عندهم أب واحد وأم وحدة وأنا عندي اثنين!

صمتُّ وقتذاك وعُدت إلى المنزل مُحملاً بعشرات الأسئلة، مُمتلئاً بالدهشة، مُثقلاً بالخوف من أن أعيش كعمار التجربة نفسها، لم أكُن أرغب بأمٍ جديدة تتشاركني مع أمي، ولم أكُن أريد أباً جديداً يشاركني فيها!، لم أكُن أريد أُمّيَن وأبّين، فوالدايّ يكفيانني!

ربتت أُمي على خوفي، احتضنت قلقي واحتوت دهشتي، تحدثنا طويلاً عن الطلاق والانفصال، وعن احتمالية وقوعه، مساوئه ومزاياه التي أصرت على اختلاقها وعلى أن تصل إلى عمار من خلالي.

حاولت أمي أن تطمئنني بأن شيئاً كهذا لن يحدث بينها وبين أبي، وبأنني سأعيش طوال طفولتي وشبابي تحت سقفٍ يجمعهما، وبأن لا شيء قادراً على أن يفرق بينهما سوى الموت الذي استطاع فعلاً أن يُحيلهما عن بعضهما عن بعض.

لم يعُد عمار كما كان من بعد زواج والدته، غدا صامتاً طوال الوقت، منزوياً دائماً، لم يعُد يشاركني الحديث كما كان، تراجع مستواه في المدرسة، انخفض وزنه، أصبح يتأخر في الحضور، وبات كثير الغياب.

كان من الواضحِ أن غيمة الطلاق النجِسة قد ظللت عمار، وأن أباه الجديد لم يكُن أباً جيداً ولا أباً جديداً كما كان ينبغي عليه أن يكون!، كان عمار تائهاً بين أبٍ ثانٍ زائف، وأمٍ ثانية مدعية.. وبين أمٍ أولى حقيقية وأبٍ أولٍ بيولوجي، يتلاقفونه أربعتهم في ما بينهم، منشغلين بعضهم ببعض، مُستثقلين وجوده بينهم، مُتناسين حاجته إليهم.

أنطفأ عمار، ذبل وأنكفأ، باتت صحبته صامته طوال الوقت، أصبح انفعالياً، ينفجر باكياً على أتفهِ الأسباب، يخضع للمتنمرين ويستسلم لهم من دون أدنى مقاومة، بات ضعيفاً، هشاً، من السهلِ كسره والتلاعب به.

تكرر عقابه في المدرسة لتأخره في الصباح عن الحضور، كان يأتي بعينين مُحتقنتين دمعاً، يجلس على كرسيه وينشق الدمع حتى نهاية اليوم، ويُعاقب عند الانصراف فيُحتجز ساعة أُخرى لتأخره صباحاً.

كُنت أودع حزن العالم المُرتسم على وجهه في نهاية اليوم وأنا أراه يجلس على الطاولة مُتكئاً بيده على جبهته مُنتظراً نهاية العقاب.

سألته في أحد الأيام، لِمَ لم تعُد تأتي إلى المدرسة مُبكراً؟

أبي الجديد هو من يوصلني صباحاً.

لِمَ لا تطلب منه أن يوصلك باكراً؟

لأننا نذهب إلى الحديقة أحياناً في الصباح!

ولماذا لا يأخذك لتلعب في الظهر؟

نحن لا نلعب في الحديقة، فقط نذهب للحمام، وإذا كُنت مُطيعاً يدعني لألعب خمس دقائق!

ألا يوجد في منزلكم حمام؟

بلى! لكنه يأخذني إلى الحمام!

لم أفهم حينذاك ما الذي كان يعنيه عمار بأن أباه الجديد كان يأخذه إلى الحمام في الحديقة قبل المدرسة، لكنني شعرتُ بأن هُناك ما لا يُقال، ما لا قدرة لعمار على قوله، وما لا قُدرة لي على إيصاله إلى أمي، شعرتُ بأن عليّ أن أصمت، مثلما صمت عمار ولم يخبر أمه.

لم أتحدث مع عمار بعدها عن الأمر، ازداد وضعه سوءاً، ازداد تأخره، وغيابه، وضعفه.

نقلتني أمي في نهاية العام إلى مدرسة أُخرى جديدة، حُجب عني أسى عمار وألمه ولم أُعد أعرف عنه أي شيء رُغم أنني لم أنسَ يوماً ذلك الوجع الذي لم أستشعره في أحدٍ غيره.

كبرتُ وتبددت الأسئلة، أصبحتُ أعرف مُسميات الأشياء، وملامح القسوة والدناءة والقبح.

عرفتُ أن هُناك الآلاف كعمار، والآلاف كزوج أمه، أبيه الجديد، فهمت المعنى الآخر لحمامات الحديقة صباحاً، وشيئاً من أشياء كثيرة لا شك عندي من أنه مر بها.

تذكرتُ عمار، حينما رأيت ذلك الحساب على وسائل التواصل الاجتماعي، لشابٍ في منتصف العشرينات، يتباهى بنعومتهِ وشذوذه علناً غير مُكترثٍ لا بالمجتمع ولا بالعائلة.

شدني ذلك الغضب والبؤس في عينيهِ، كان مألوفاً بصورة لا تُعقل!، وقع اسمه كسهمٍ مسمومٍ في قلبي، حينما وقعت عيني على اسم عمار وعائلته.

كُنت أقرأ الردود على تغريداته، وهم يلعنون الجاحد الناكر فيه، داعين الله أن يعين أمه وزوج أمه الذي قام بتربيته على مصيبتهما فيه.

اعتراني وجع لم أشعر به إلا بعدما فقدت أمي، حظرت حسابه كي لا تطالعني أية تغريدات له، أغلقت هاتفي وكرهتُ الحياة ومن فيها أكثر بكثير مما كُنت أفعل.

* * * *

عُدت إلى الحياة بعدما قررت أن أبتعد عنها، لم يكُن بيدي ما أفعله إلا أن أعود إليها، كانت الحياة صعبة أثناء وجود أُمي، وأصبحت الحياة شِبه حياة بعدما رحلت عنها.

آمنت بأن أقدارنا في الحياة أقوى من أي محاولة للتغيير فيها، لذا حاولت أن أتصالح مع قدري، أن أنظر إليه بعين القبول من دون أن أحاول تغيير نفسي التي لم تكُن لتتغير مهما حاولت!

أعرف بأنه لطالما أرادتني أُمي أن أتغير، رُغم أنها لم تطلب يوماً مني ذلك إلا أنني أعرف بأنها لطالما رغبت بهذا في قرارة نفسها التي حاولت تطويعها من أجلي.

كل الأمهات يشعرن بأنهنّ يستحققن أمومة مُمتعة، وبأن أطفالهن يستحقون طفولة سعيدة، لم تحظَ أمي معي بأمومة مُمتعة رغم محاولاتي لإمتاعها، ولم أحظ معها بطفولة سعيدة رُغم محاولاتها

لإسعادي.

حاولتُ وحاولت، وحال اختلافي بيننا في كُل المحاولات وفي كل الأحوال.

لم يزح الله أمي من حياتي ليجعلها أكثر قسوة، بل لأعرف شكلاً آخر للحياة، بُعداً آخر ووجهاً آخر وألماً آخر يشغلني عن ألمي القديم المُمتد منذ مولدي.

أحتاجُ لأن يحتضنني الله، ولأن يمسح على قلبي ويمنحني الطمأنينة التي لم أعرف لها وجهاً غير وجه أُمي.

أحتاج لأن أُغادر ذلك الولد الصغير المُندفع والقَلِق، أن أودعه بأحزانه ومخاوفه وأوجاعه، أن أدفنه مع أمه التي رحلت لأنه لن يقدر على العيش في حياة ليست فيها.

أحتاجُ لبداية جديدة، ولثنيان آخر، أحتاجُ لأن أُغادر عباءة أمي التي لطالما اختبأت بداخلها خوفاً من العالم وتوجساً من الناس!

أحتاجُ لأن أوقف نزف هذا الألم المُنساب في داخلي، أن أنسى ملامح أمي الخانعة عند الموت، أمي التي أشعر بالذنب غالباً تجاه موتها، مثلما كُنت أشعر بالذنب دائماً خلال حياتها، أنا الإنسان الذي لطالما رافقه الذنب سواء قام به أم لم يرتكبه!

عندما تكبر كطفلٍ مُختلف، يشعرك الناس بالذنب!، يوصمك الاختلاف دائماً بالذنب، فتأرجحك مشاعر سوء أو أحداث وجع أيّاً تكن، فتشعر وكأنك قد ارتكبت ذنب العالم أجمع من دون أن ترتكبَ ذنباً!

يمزقني الذنب كل ليلة من بعدِ وفاة أمي، يأبى قلبي أن يُسلم بأن موتها كان مُقدراً، أحاول أن أُقنع نفسي بأن امرأة مريضة وإن كانت تُمارس السباحة يومياً قد تغرق فعلاً ذات يوم من دون أن تقتل نفسها ومن دون أن أكون السبب!

لا أستطيع أن أُصارح أحداً بأنني أظن بأن أمي قد أغرقت نفسها عمداً في المسبح كي ترتاح من حياة تدور كل محاورها حولي!، لم تبدُ أمي يائسة رُغم صدمتها عند اكتشاف المرض، كانت خائفة ومصدومة لكنها لم تيأس قطّ، لم تشعرني يوماً بقلة حيلتها تجاهي، لكنني لم أكُن غبياً لأُدرك ذلك العجز الذي يكتنفها تجاهي، وتلك الحيرة التي لم يبددها الزمن!

قد تكون أمي قد خارت قواها فعلاً ذلك اليوم في المسبح فغرقت بعدما أُغمي عليها مثلما كُتب في تقرير الطب الشرعي، وقد تكون أغمضت عينيها اختياراً، وتنازلت عن قواها وعن الحياة طوعاً فغادرتنا بمحض إرادتها ورغبة منها بالاستسلام والرحيل!

حزمت أمي حقائب الحياة وغادرت إلى الموت، ولا أحد منا قادراً على أن يفهم فعلاً كيف ماتت، وبأي رغبة رحلت!

أُدرك بأن أمي لم تُكن لتتركني طوعاً، لكنني أشعر أحياناً بأنها لم تكن لتدفعني إلى الحياة إلا بالرحيل!

أنا غير قادر على اجتثاث ذلك الشك المتشعب في داخلي تجاه موتها، يتلاعب الشيطان بخيوط أفكاري كل ليلة، يعبث بذلك الطفل الذي لطالما عاش مُذنباً بلا ذنب، فيرتفع الذنب في داخلي ويكبر، وينخفض الرضا في أعماقي ويصغر، وأبقى مُترجّحاً ما بين الذنب والشك.

أنا لم أولد بهذا الإحساس وحدي، رُغم شعوري الحاد بالوحدة إلا أنني أعرف بأن من المستحيل أن أكون النسخة الوحيدة في هذه العالم، هُناك كثيرون يشبهونني بلا شك، تتقاطع حيوات الناس وتتداخل، مهما اختلفوا، وتضادوا وتنافروا.

وأنا رُغم فرادتي، إلا أنني أعرف بأن هُناك أشباهاً لي، قلة قليلة، لكنهم قطعاً موجودون، يعاركون الحياة ويصارعونها، تغلبهم غالباً ويغلبونها أحياناً، تبكيهم كثيراً وتضحكهم في بعض الأحيان.

لاختلافهم مغزى، وفي نضالهم شجاعة، ولوجودهم معنى خفيّ في هذه الحياة.

لم يكُن أمامي إلا أن أتجاهل الذنب والشك الجاثمين على صدري، أن أحاول التوقف عن التفكير في معظم الأشياء، أن أُمارس الحياة بأقل قدرٍ من التوقعات، أن أقبل صدودها، وصدماتها، تقلباتها وانقلاباتها من دون أن أعارضها أو أن أُعرض عنها.

أرقب مساعد وراكان، أتأمل حجم خسارتهما لأمي، ومحاولاتهما للتجاوز، يتكئ كل منهما على الحُب والصداقة والمجتمع ليتجاوز الخسارة ويجتاز المحنة، أحاول أن أُستند إليهما، أن أتعضد بهما، لكن المساحات بيننا شاسعة رغماً عني ورغماً عنهما.

أحاول أن أخوض أكبر قدرٍ من التجارب الجديدة، أن أكتشف نفسي من جديد، من دون أن أخاف خسران روحي أو خذلان أحد.

اشتركت في مجموعات وتطبيقات للمناقشة والهوايات، حاولت الاندماج في هذا النوع الجديد من المجتمعات، جربت كُل نوعِ منها، لكنني في الحقيقة لم أجد نفسي في شيء منها، لم يغريني السفر، ولا المخيّمات ولا الرياضات الخطرة، لم أقدر على الغوص ولا على التسلق، لكنني مارست المشي بين كثبان الرمال وتعرفتُ إلى أُناس جدد لم تتطور ولم تدم علاقتي بأحدٍ منهم.

لم أقع في الحُب، ولم أعقد صداقة، لم أنس أمي ولم أتجاوز اختلافي، لكنني أصبحتُ أشد جرأة وأكثر جسارة على مجاراة الحياة وعلى مواجهة الموت.

لم تعُد تعنيني نظرة العالم إلي، لم يعُد يهمني قبول الآخر، بل كيف أنظر إلى العالم والناس، كيف أقبلهم وليس كيف يقبلونني!

لم أعُد أعول على الآخرين كثيراً، الحقيقة أنه لم يعُد هناك من أعول عليه!، ورُغم أن هذا أخافني كثيراً بعد فقدي لأمي، إلا أنني شعرتُ في نهاية الأمر بأنه قد حررني، وبأنه لم يَعُد هناك ما أخشاه وما قد أخسره.

تأتيني أمي في أحلامي دائماً، هادئة، مُبتسمة، رقيقة كعادتها وصامتة على غير العادة!

لم أسمع صوتها في أية رؤيا، كنتُ وحدي من يتحدث طوال حضورها، تبتسم في وجهي، تمسح على رأسي، تضمني إلى صدرها فأبكي وأثرثر اشتياقي ومخاوفي ويتمي ووحدتي من بعدها.

لا أعرف لِمَ ابتلع الموت صوت أُمي، وكيف فقدت صوتها حتى في الأحلام والرؤى!

تأتيني فجأة وتغيب فجأة، تحضر بالصمت نفسه وتُغادر وبالسكينة ذاتها، تُنصت إلي في موتها مثلما أنصتت إلي في حياتها، لكن من دون أن تُرشدني أو تُهديني هذه المرة، تجيء لتسمعني وتُغادر من دون أن توحي إلي بشيء !

احتضان الأموات لا يُشبه احتضان الأحياء على الإطلاق، فعندما تحتضن حبيباً في حُلمك، يتضاعف الفراغ في وجدانك عند اليقظة، يتضخم الفقد، يلتهب الوجع، وتتمدد مساحات الشوق وخرائط الوحدة.

كبرت الفجوات بيني وبين أخويّ من دون قصدٍ ولا رغبة منا، تجاوزت مساحات الغياب مساحات الحضور، انغمسا في حياتيهما، وعلقتُ في حياتي، لم يعُد هُناك من يقدر على أن يقارب بيننا، ولا على أن يربطنا بعضنا ببعض كما كُنا، حتى دعواتنا في أن يشركنا الله في أمورنا وأن يشد بنا أزور بعضنا بعضاً توقفت ولم تستمر.

لم يبذل أبي جهداً في محاولة تحجيم المسافات، لم يبذل جهداً لأنه لم يعرف يوماً كيف يُبذل هذا الجهد!، لطالما كانت أمي هي من تحيك علاقاتنا، من تشدّنا وتصلنا بعضنا ببعض طوال الوقت، من تُثبت أوتادنا معاً، ومن تتحمل عبء تشكيل أخوتنا وتوطيدها.

يتسلل أخواتي من حياتي على استحياء، لا قدرة لي على اللحاق بهما ومجاراتهما، ولا على منعهما من التخلي عني.

دارت عجلة الحياة، كان كل يومٍ يشبه ما قبله، كُنت أعيش اليوم كما كُنت أعيش الأمس والغد، بالروح ذاتها، والأفكار عينها ولتلك المشاعر، أتجرع كل صباح كعلقم في حلقي، أصارع يومي على مضض بانتظارٍ أن ينتهي وأن يعبر قطار الحياة سريعاً إلى محطة الموت فأنتهي وأتلاشى كسحابة دُخان.

لم ينته الأمر بعد، لم يُسدل الستار، ولم أغادر مسرح الحياة، ما زالت عجلة الحياة تدور، أدور معها وتدور بي، أعتليها أحياناً وأسقط منها كثيراً، أحاول تفكيك رموز الحياة واستيعاب معناها، وتحاول هي أن تصعّب الأمور وأن تعقّدها في وجهي.

يطبطب عليّ دائماً أنني سأجد أمي بانتظاري على الضفة الأخرى عندما أُغادر الحياة، لن أعبرها وحيداً ولن أكون وحيداً هُناك.

يُخيل إلي أحياناً أنها ربما سبقتني، كيلا أكون وحيداً بعد الموت، أرادت أن تستقبلني حين الوصول وبعد مُغادرة الحياة، لتحتضنني عند دخولي إلى العالم الجديد، تمد يدها إلي، تمسك بي لتطمئنني وتعرفني إلى الحياة المجهولة والعالم المُبهم.

قد يكون هذا هو مغزى رحيلها المُبكر، مثلما حاولت أن تجهزني للحياة سعت بموتها لأن تجهزني للموت حُباً بي وخشية عليّ!

لم تخذلني أمي يوماً، وأعرف أنها لن تخذلني حتى بعد رحيلها، أعرف بأن لحكاية موتها معنىً، وأنها غابت لحكمةٍ لا أفهمها، لم تحيا أمي عبثاً ومن المستحيل أن تُغادرني اعتباطاً.

أتذكر كيف كانت تشرق ملامحها بقوة حينما كانت تقول في كُل مناسبة تستفز فيها أو تستدعي تحديها «طبعاً أقدر وأنا أم ثنيان!»، كانت تبث الثقة بي بفخرها بي، تطبطب على انكساراتي وهشاشتي بأن تواجه العالم بي مُفتخرة.

كنت أتضخم في وجودها، أتضاءل بعيداً عنها، تعملقني ثقتها بي، وتقزمني شكوك العالم بعيداً عنها.

عُدت إلى الكتابة، انغمستُ فيها، حاولت أن أُتحرر من كُل الأشياء التي تكبلني في الحياة، أهم الأشياء وأتفه الأشياء!

يؤمن فرناندو بيسوا بأن «أقل الأشياء أهمية مجلبة لأكبر التساؤلات»، وأُفكر أنا كيف أشترك معه في أن معظم الأشياء بالنسبة إليّ هي من أسخف الأشياء وأقلها أهمية!

كيف كانت تحرك تلك الأشياء مشاعري وأفكاري، كيف شتتني في معمعة التساؤلات تائهاً فيها ومنشغلاً بها عن اليقين ومناطق الحياد!

ألتقي مع بيسوا بأشياء كثيرة، أشعر عندما أقرأ له بأنه الإنسان الوحيد الذي أتقاطع معه في أمورٍ كثيرة، أنا أيضاً مثله، أؤمن كما كان يؤمن بأن «أحداً لن يفتقده عندما يموت، ولن يقول أحد بعد موته بأن المدينة قد تغيرت بالأمس»!

أشعر حينما أقرأ له بأنه الوحيد القادر على ترجمةِ أفكاري وتفسير مشاعري، هو الوحيد الذي تكلم عني قبل مجيئي، الوحيد الذي عبر حدودي، وتخبط معي في دائرتي، وطُحن مثلي بأفكاره مثلما عُجنت أنا بأفكاري!

لا أعرف إن كان بيسوا توحدياً أيضاً، من الصعبِ أن يكتشف هذا في زمنٍ كالذي عاش فيه، لكنني أكاد أجزم بأنه كان توحدياً بشكل ما ، بدرجة ما، بأنه رجُل يُحيطه الاختلاف وتكتنفه الغرابة.

كان يشبهني في الوحدة، يبادلني الاختلاف ويشاركني في الألم، غالباً أنا من يشبهه!، المهم أننا نلتقي بالمشاعر والأفكار وإن كُنا نختلف في القدرةِ على التعبير عنها.

هل خففت الكتابة من عبء الحياة على بيسوا؟!، هل كان النشر سيجعله أكثر تعايشاً مع الآخرين وأكثر اندماجاً معهم؟!

ماذا لو نشر بيسوا كتبه قبل أن يموت؟!، لو تجرأ على كسر قالب التوجس وعلى أن يزيل بيديه خيوط الرهبة؟!

أكانت لتعينه الشهرة على النجاة؟!، على أن يحيا سعيداً واجتماعياً ومطمئناً على عكس ما عاش!

لم تجعلني الشهرة مُستقراً ولا مطمئناً ولا سعيداً، لكنها قاربت بيني وبين الناس بطريقةٍ ما، منحتني في أوقاتٍ كثيرة الشعور بالتشابه مع الآخرين، الالتقاء معهم حتى لو كان هذا اللقاء والالتقاء في عوالم مُختلقة وحكايا منسوجة.

ربما هذا ما أعادني إلى الكتابة، لأنها وحدها ما تجعلني أقارب الآخرين وأكون على تماسّ معهم، ما تجعلني مقبولاً ومُصدقاً ومشابهاً لهم.

عُدت إلى الكتابة، ملهوفاً لها ومضطراً إليها هذه المرة، مشتاقاً لأن ألمس من خلالها امرأة غابت قسراً رُغماً عني ورُغماً عنها، امرأة لم تُعد قادرة على أن تُمارس أمومتها عليّ ولم أعُد قادراً على أن أحتمي بها. عُدت لأعيش معها حكايات جديدة، لتُحبني أكثر ولأحبها أكثر، لتعيشني في موتها ولأعيشها في حياتي.

عُدت إلى الكتابة، لأنني لا أقدر على الاستمرار في هذه الحياة من دون أن أعيش أمي، من دون أن أستظل بظلالها ومن دون أن أتدثر بها، عُدت لأكتب لتبقى أمي دائماً معي ولتبقى أمي حية!

كانت ليلة كتابة قَلِقة، تلاقفتني فيها على سريري مشاعر الملل والإحباط واليأس، كُنت أشعر بعد وفاة أمي بأن قدراتي مشلولة وبأنني سأبقى عديم التأثير مثلما شعرتُ أمام مرض أمي وعبورها إلى الموت، كُنت أُدرك أن القدرات تنعدم أمام الموت، وبأن المساعي تضعف وتستسلم وتتلاشى كلما اقترب وبعدما ينتهي من مُهمته وينتشل من جاء لينتشله!

أحاول أن أهرب إلى النوم، إلى تلك المساحة الصامتة من اللاوعي، وتلك البقعة من الغياب الاختياري، أحاول أن أغيب عن هذا الواقع المُفزع وتلك المفاجآت الصادمة، فيأبى النوم أن

يحتضنني، يركلني بقدمٍ قوية نحو قسوة الواقع، وفجيعة اليقظة ومرارة الإدراك، فأتصارع مع الأرق حتى أضعف وأنهار وأنام.

لا أعرف إن كُنت قد غلبت النوم أو إن كان من غلبني،آخر ما أذكره هو أنني نظرتُ إلى شاشة هاتفي لأجد الساعة تُقارب الثالثة فجراً، كُنت أشعر بثقلٍ ضخم يجثم على صدري، أغمضتُ عيني ورأيت أنني قُمت من سريري بقلبٍ متوجسٍ، خائفٍ وكسول، نزلتُ إلى غرفة أمي في الطابق السفلي، غرفة المرض كما أسميها وغرفة الاستشفاء كما كانت تسميها هي، أنا المتطرف السلبية وهي الإيجابية بتطرف.

كانت قد انتقلت إليها قبل وفاتها بأسابيع، غادرت فيما يبدو غرفتها التي تتشاركها مع والدي كي لا يؤرقه مرضها مثلما كان يؤرقها ويؤرقني، أنا العالق في قاع الأرق منذ طفولتي والذي ازددت أرقاً بعدما اكتشفت مرضها، كانت المسافات تتباعد بيني وبين النوم كلما ازدادت أمي مرضاً.

لم أقرع الباب كي لا يُعيدها صوته إلى اليقظة، فتحته ببطء فوجدتها شبه جالسة على السرير، تُحدق إلى سقف الغرفة بعينين مُتعبتين، خفضت رأسها باتجاهي ونظرت إلي وتبسّمت.

قُلت لها بعدما أغلقت الباب خلفي وبصوتٍ خافت: لِمَ لم تنامي حتى الآن؟

جلستُ على طرف السرير، اعتدلت هي في جلستها قليلاً وقالت: أُفكر! وأنت؟، لِمَ لم تنم؟

كُنت مندهشاً لسماعي صوتها! هي التي لم تتحدث في أحلامي منذ أن غادرتني!

قُلت لها بسرعة خوفاً من أن يتلاشى صوتها ويختفي من جديد:

أُفكر أيضاً، فيمَ تفكرين؟

أفكر في الموت والحياة، وأنت فيمَ تفكر؟

أنا أيضاً، أفكر في الحياة والموت.

هذا إيجابي!، أنت تفكر بالحياة قبل أن تفكر بالموت، على العكس مني!

وعلى غير العادة!

ضحكت بوهن ووضعت كفها على يدي وقالت: أنت «فرحة» قلبي يا ثنيان، لطالما كُنت فرحة قلبي.

صمتّ قليلاً وقُلت: تبدين مُستسلمة على غير عادتك، وهذا يُخيفني!

أعرف!، أعرف أنك خائف، أنا أيضاً خائفة.. لكنني تعبت من المقاومة!

لطالما طلبتِ مني أن أقاوم، أنا أطلب منكِ هذه المرة أن تقاومي لأجلي.

أنا لم أقاوم إلا من أجلك، لكنني مُتعبة يا ثنيان، يحق لي الاستسلام، يحق لي أن اختاره!

لا، لا يحق للأمهات الاستسلام، ما دمتِ قد اخترتِ إنجابنا فيجب عليكِ المقاومة والعودة!

مسحت بيدها على شعري وقالت: لكنك رجل!، جميعكم رجال!، لستم أطفالاً لأخاف عليكم.

حتى لو كنا رجالاً، نحتاجكِ.. أنا لا أقدر على العيشِ من دونك فِلَم تتخلين عني؟

أنا لم اختر المرض يا ثنيان!

لكنكِ اخترت الاستسلام والموت وهذا ظالم!

لا تصعب الأمور عليّ يا ثنيان، لا تكُن أنانياً، في كل الأحوال كنت سأموت يوماً وكان سيتعين عليك العيش من دوني.

أنا لا أقدر على العيش من دونك! مهما حاولت لن أقدر!

انهمرت دموعها وقالت: المشكلة ليست في اعتقادك بعدم قدرتك على العيش من دوني، المشكلة في رغبتي بعدم تركك خلفي!، أنا لا أقدر على تركك وحدك، ولم أكُن قادرة على المقاومةِ أيضاً.

خذيني معكِ إذاً!

قُلتها بخوفٍ وتوجس، دسستُ جملتي بحذر وأنا معلق النظرات بعينيها، الغريب أنها لم تتفاجأ، لم يبدُ عليها الاستنكار، ولا الرفض ولا الغضب، وكأنها فكرت في تلك الفكرة قبلي!

صمتت طويلاً ومن ثم ربتت على الوسادة بجوارها وقالت: تعال ثنيان، تعال ونم بقربي!

اندسستُ في السرير بجوارها ووضعتُ رأسي في حضنها، أخذت تمسح على رأسي وهي تُتمتم بأغنيتنا القديمة تلك، كان دمعها يبلل شعري، وكان دمعي يبلل ملابسها، قالت بصوتٍ خنقه الدمع: ثنيان أحضر علب الدواء الموجودة على الطاولة إلى يمينك!

مددتُ يدي وأمسكت بثلاث علب على الطاولة بجواري ووضعتها بيني وبينها، رفعتُ عيني مُتردداً إليها فهزتْ رأسها مُطمئنة وموافقة!

أثير عبدالله النشمي

الرياض